تشبيهات الرُّمْح

في (المفضليات)

دراسة بلاغية نقدية

دكتور

على عبد الموجود نور الدين

مدرس البلاغة والنقد بكلية

اللغة العربية بجرجا

المقدمة

الحمد لله خالق الإنسان ومعلمه البيان، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، وأوتى الحكمة وفصل الخطاب، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فقد سجل الشعر الجاهلى كثيرا من أخبار العرب في حروبهم سواء في شعر الفخر والحماسة أو فى شعر الهجاء ، أو الرثاء، وكان كثير من هؤلاء الشعراء فرسانا يخوضون غمار الحروب.

وكان من بين ما جادت به قرائح الشعراء في ذلك وصفهم الدقيق، وتصويرهم البارع لأدوات القتال وآلات الحرب،كالسيف،والرمح ،والسهم،والدرع،وغيرها.

وقد دفعنى الحرص على الإسهام في إثراء الدرس البلاغى التطبيقي إلى الوقوف على هذه الأشعار وتأملها وقراءتها قراءة متأنية، وبخاصة ما يتعلق منها بتشبيهات الرمح، ومن ثم قصدت ذلك وطلبته في قصائد (المفضليات)[1] التى تعد من نفائس الشعر وعيونه ومحاسنه،"وإنه ليعجبك حقاً أن تروض نفسك بفهم

---

(١) "المفضليات" : مجموعة من القصائد تعد من نفائس الشعر العربى، اختارها المفضّل الضبى (ت١٨٧هـ) من عيون الشعر العربى، وقد حققها الأستاذان: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمح هارون. ووصفاها بأنها:"أقدم مجموعة صنفت في اختيار الشعر العربى". (ينظر: تقديمهما للمفضليات، ص٥، الطبعة الثامنة، دار المعارف ، مصر).

أسرار هذا البيان ،فإذا أنت تستزيد وتستزيد، ولا يفارقك العجب منه،والإكبار له،وأن تغرم به"[١].

وبعد قراءة فاحصة في قصائد "المفضليات" تبين لى ورود تشبيهات الرمح فيها عند ستة شعراء في ستة مواضع ،وقد حرصت على تحليل كل صورة تشبيهية منها تحليلا بلاغيا تذوقيا نقديا،يعتمد على ذكر البيت أو الأبيات موطن الشاهد ثم ربطها بسياق القصيدة وجوها العام،ثم الغوص في التحليل البلاغى النقدى القائم على تجلية السياق ، وبيان الأغراض والمقاصد، وتحليل التراكيب اللغوية؛ لينطلق منها إلى كشف أسرار الصورة التشبيهية للرمح أو لأحد أجزائه ، وربطها ببقية الأساليب البلاغية التى تتساوق معها وتتناغم في كشف خصوصيات المعانى وأحوالها في كل موضع.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يخرج في مقدمة وستة مطالب وخاتمة.

المطلب الاول: تشبيه حد الرمح وسنانه عند يزيد بن سنان.

المطلب الثانى: تشبيه أعلى الرمح وسنانه عند مزرد بن ضرار.

المطلب الثالث: تشبيه طول الرماح عند سلامة بن جندل.

المطلب الرابع: تشبيه سنان الرمح عند عَميرة بن جُعَل.

المطلب الخامس: تشبيه سنان الرمح عند ربيعة بن مقروم.

المطلب السادس: تشبيه سنان الرمح عند أبى ذؤيب الهذلى.

وكانت هذه التشبيهات أكثر ورودا في مقام الفخر، ثم الهجاء، ثم الرثاء.

---

(١) مقدمة المفضليات ، ص٥.

كما أن جلها في تشبيه سنان الرمح ، وقد جليت السر في ذلك.

وقد خلصت في الخاتمة إلى ذكر أهم النتائج، ثم ذكرت أهم مصادر البحث ومراجعه.

وأرجو أن يكون هذا البحث لبنة تسهم في بناء الدرس البلاغى التطبيقي القائم على تذوق الشعر العربى وتحليله ونقده ، والساعى إلى إصلاح الدرس البلاغى وإثرائه.

□والله ولى التوفيق

دكتور/ على عبد الموجود نور الدين

المطلب الأول

تشبيه حد الرمح[١] وسنانه عند يزيد بن سنان

في مقام الفخر بنفسه وبفرسه يقول رجل من عبد القيس حليف لبني شيبان[يزيد بن سنان أخو هرم بن سنان] [٢] (من الوافر) [٣]:

---

(١) الرمح: من أدوات الحرب القديمة ، ويتكون من : نصل – أو سنان– مثبت في عصا أو (قنا).

وصناعة الرماح تعرف بالرماحة، وصانعها بالرمّاح.

وهي من أدوات الحرب والصيد القديمة العهد، وقد وجدت رماح ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ.

وأكثر ما تستخدم الرماح على ظهور الخيل، وتختلف أسنتها بحسب أغراض صنعها فمنها : الورقية، والعرضية، والمعوجة.

وقد جاء ذكر الرماح في أشعار العرب وفي كتب الفروسية.(دائرة المعارف الحديثة، وضع: أحمد عطية الله، ٩٠٨/٢/ مكتبة الأنجلو المصرية/ الطبعة الثانية / ١٩٧٩م).

(٢) هو يزيد بن سنان بن أبى حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان.

وهو أخو هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى، وأبوهما سنان له في المفضليات القصيدتان ١٠٠، ١٠١(المفضليات، ص٧٠).

(٣) المفضليات مختارات المفضل بن محمد بن يَعْلَى الضبِّى، ص٧٠، تحقيق وشرح:أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، ط.الثامنة، دار المعارف، مصر.

[و] لَمَّــا أَنْ رَأَيــتُ بَنِــي حُيَــيٍّ عَرفْـتُ شَـنَاءَتِي فـيهم ووِتْـرِي
رَمَيْــتُهُمُ بِــوَجْرَةَ إِذْ تواصَــوْا لِيَرْمُـوا نَحْرَهَـا كَثَبـاً ونَحْـرِي
إِذا نفَــذَتْهُمُ كَــرَّتْ علــيهمْ كــأَنَّ فَلُوَّهــا فــيهم وبِكْــرِي
بذاتِ الرِّمْثِ إِذْ خَفَضُوا العَوَالِي كــأَنَّ ظُباتِهــا لَهَبَــانُ جَمْــرِ
فلَــم أَنْكُــلْ ولم أَجْـبُنْ ولكـنْ يَمَمْتُ بها أَبا صَخْرِ بنَ عَمْروِ
شَـكَكْتُ مَجَـامِعَ الأَوصـالِ منـهُ بنَافِــذَةٍ علــى دَهَــشٍ وذُعْــرِ
تَركـتُ الـرُّمحَ يبْـرُقُ في صَـلاَهُ كــأَنَّ سِــنانَهُ خُرْطُــومُ نَسْــرِ
فــإِن يَبْــرأْ فلــم أَنْفِــثْ عليــه وإِنْ يَهْلِكْ فذلكَ كان قَدْرِي

جو القصيدة:

قالها في شأن يوم ذات الرمث يفخر بنفسه وبفرسه، ويذكر قتلــه أبــا صخر بن عمرو القيني، وكان سباهم يوم ذات الرمث(١).

الدراسة والتحليل:

في هذه الأبيات يصور الشاعر موقفا شديدا وعصيباً تعرض له في يــوم "ذات الرمث". وذلك حين أبصر بعينيه شدة بغض "بني حُيي" له وحرصهم على الثأر منه، وتمالؤهم عليه، وتواصيهم على الفتك به ورميه وفرسه بالرماح عــن قرب. مما جعله ينبرى لهم ويرميهم بفرسه (وجزة) التى جاوزهم وخلصت إليهم، وكرت عليهم وكأنها تطلب وليدها فيهم وكأن الشاعر يطلب ابنه البكر فــيهم كذلك:

---

(١) المفضليات ، المفضلية رقم (١٣)، ص٧٠.

[و] لَمَّـــا أَنْ رَأَيـــتُ بَنِـــي حُيَـــيٍّ عَرفْـتُ شَـنَاءَتِي فـيهم ووِتْـرِي
رَمَيْـــتُهُمُ بِـــوَجْرَةَ إِذْ تواصَـــوْا لِيَرْمُـوا نَحْرَهَـا كَثَبـاً ونَحْـرِي
إِذا نفَـــذَتْهُمُ كَـــرَّتْ علـــيهمْ كـــأَنَّ فَلُوَّهـــا فـــيهم وبِكْـــرِي

وهذا تشبيه يبرز قوة كرّها عليهم لقوة الدافع إليه، وهو أن يحرر كل من الشاعر وفرسه وليده الذى بلغ حد الفطام من بين أيديهم.

ويحدد الشاعر مكان الواقعة، كما يصف حد رماحهم الـــتى خفضـــوا أعاليها استعداداً للفتك به وبفرسه:

بذاتِ الرِّمْثِ إِذْ خَفَضُوا العَوَالِي كَأَنَّ ظُباتِها لَهَبَانُ جَمْرِ

قوله: (بذات الرمث) [1] متعلق بقوله (كرت عليهم) أى: خلصت إليهم بسرعة فائقة في هذا المكان، في الوقت الذى خفضوا أعالى رماحهم وصـــوبوها تجاههما.

وقوله: (إذ خفضوا العوالى) أى صوبوها وجعلوها في وضع الاســـتعداد بعد أن كانت مرتفعة إلى أعلى، وخفض أعالى الرماح كناية عـــن الاســـتعداد للرمى وارتفاعها على العكس من ذلك، وتصدير الجملة بـــ(إذ) الظرفية بقصد تحديد زمان كرها عليهم بعد أن حدد مكانه.

والمراد من ذلك: تأكيد وصفها بالقوة والسرعة الفائقة الـــتى جعلتـــها تخترق رماحهم وتنفذ في جموعهم المتربصة وهذا ما أكده أيضًا أسلوب التشـــبيه بأداته (كأن) في قوله (كأن فلوها فيهم وبِكرى) فيكون تأكيداً علـــى تأكيـــد،

---

(١) ذات الرمث: وادى لبنى أسد، والرمث بالكسر: شجر من الحمض واحدتـــه رمثـــة يشـــبه الغضا، لا يطول ولكنه ينبسط ورقه.(لسان العرب/لابن منظـــور، مـــادة (رمـــث٩) ط.دار صادر، بيروت.

ويردف الشاعر جملة ثالثة يصف فيها حدّ رماحهم المصوبة ليصف تأكيداً ثالثا يبرز افتخاره واعتزازه بنفسه وبفرسه:

(كأن ظباتها لهبان جمر).

فتلك صورة مفزعة ترتعد منها الفرائص، وتهتز لها القلوب خوفا ورعباً وفزعا، حيث شبه حدّ الرماح بلهبان الجمر "وهو اشتعال النار إذا خلصت من الدخان وظهر لسانها صافياً"[1] وهذا أدعى لشدة الإحراق والإيلام اللاذع الذى يخترق الجسم وينفذ في أحشائه.وهذه المعانى قصد الشاعر إلى إثباتها للمشبه عن طريق إلحاقه بالمشبه به فيها حتى تتضح صورته المفزعة وتنكشف حقيقته المروعة مما يصعب مهمة اختراقهم والكر عليهم، وفى ذلك من تأكيد افتخاره بنفسه وبفرسه التى كرت عليهم في هذا الوقت ما فيه.

وبذا يكون الشاعر قد حشد كل عناصر الصورة المعنوية واللفظية المعبرة عن هذا المشهد العنيف، وتلك التجربة القاسية التى لم تضعف من همته القوية ورغبته الشديدة في النيل منهم بصحبة فرسه ورمحه.

– فقد جاءت الألفاظ متناغية مع شدة الموقف ولهيبه ومطابقة لمقتضى الحال، ومعبرة عن معانيها أدق تعبير وأصدقه، تأمل هذه الألفاظ [شناءتى – وترى – رميتهم – تواصوا – ليرموا – كثبا – نفذتهم – كرت – خفضوا العوالى – ظباتها – لهبان جمر].

حتى المكان الذى يضم المشهد (ذات الرمث) يفوح شدة ولهيبا وقوة، فالرمث، بكسر الراء:شجر من الحمض واحدته رمثة، يشبه الغضا.. ويرتفع دون

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (لهب).

القامة وله خشب وحطب ووقوده حار[١].

– كما جاءت الصور التشبيهية كاشفة عن لهيب الموقف وأثره المعنوى والمادى على نفس الشاعر .

فالصورة التشبيهية في قوله :(كأن فلوها فيهم وبكرى) تجسد شدة الأثر المعنوى الذى تركه عداء "بنى حُيى" له وحرصهم على الفتك به واجتماعهم على شناءته مما دفعه إلى أن يرميهم بفرسه فتكر عليهم وتندفع فيهم اندفاع من يقصد إلى تخليص عزيز غالٍ من قبضة عدوه وبطشه.

فهذا الإحساس القوى بالفزع، وتلك الرغبة الشديدة في النيل منهم قبل أن ينالوا منه ومن فرسه هى التى جعلت هذه الصورة التشبيهية تجرى على لسانه بهذه القوة لتعكس مشاعره، ومشاعر فرسه في آن واحد، ولتحكى شدة طلبه وطلب فرسه لهم، وكأنه يطلب فيهم ولده البكر وهي تطلب فلوها.

ومن ثم كان اصطفاء التعبير بأدة التشبيه (كأن) التى هى الأقوى والأبلغ في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به، فهى إنما تستعمل حيث يقوى الشبه، حتى يخيل للرائى أن المشبه هو المشبه به، وهذا ما عبرت عنه بلقيس فيما حكاه القرآن الكريم عنها في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل آية: ٤٢] وقد كان هو بالفعل. فشدة الشبه هى التى جعلتها تستعمل (كأن)، والبيان القرآنى هنا يحكى موقفها بأسلوبه المعجز.

وقد كرر الشاعر أداة التشبيه (كأن) في ثلاث صور تشبيهية في هذا الموقف، وهذا يعكس قوة إحساسه بمعانيه، ويكشف عن رغبته في إبراز قوة

---

(١) لسان العرب ، مادة (رمث).

الشبه بين طرفى التشبيه في كل صورة، حتى يخيل للرائى ويخطر ببال السامع أن المشبه هو المشبه به، وبذا تتحقق المشاركة الوجدانية بين القائل والسامع، وتترسخ فكرة التلقى الواعى القائم على المعايشة وشدة الإدراك لعناصر العمل الأدبى.

واصطفاء التعبير بكلمات (فلوها – فيهم – بكرى) يقوى المعنى المقصود من التشبيه، ويكشف عن قوة بالغة تدفعه دفعاً إلى الكر عليهم بفرسه لأن فيهم من يحب، وينبئ عن أن حمل الشاعر عليهم وقتله "أبا صخر بن عمرو القيني" لم يكن عدوانا بل دفاعا عن النفس ضد من تمالؤا على النيل منه. وتلك هي أخلاق الفرسان النبلاء التى يفتخر بها يزيد بن سنان، أخو هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبى سلمى.

أما التشبيه في قوله (كأن ظباتها لهبان جمر) فهو تجسيد للأثر المادى على نفس الشاعر وفرسه، والمتمثل في تلك الرماح التى صوبها هؤلاء القوم عليه وعلى فرسه، والتى بدا حدها كأنه نار مشتعلة قد خلص لهبها ولسانها من الدخان، فصفا ولمع واشتد حره.

فهو قصد إلى تصوير حد رماحهم (ظباتها) وهو ما يلي الطرف منها، بصورة اشتعال النار التى خلصت من الدخان، ووجه الشبه الصفاء واللمعان المصحوبين بشدة الإيلام واللذع والفتك بكل من تتصل به.

وقد كان الشاعر موفقا في اصطفاء عناصر الصورة التشبيهية والتآخى بينها حتى بدت متساوقة متناغمة في تجسيد هول الموقف وشدته على نفس الشاعر، وعلى فرسه.

– فأداة التشبيه (كأن) تجسد قوة الشبه بين المشبه والمشبه به.

– والمشبه (ظباتها) جمع: ظُبة، وهي حد السيف والسنان أو النصل أو الحجر وما شابه ذلك، وهي في السيف ونحوه مما يلي الطرف.

وقد وجد الشاعر في صورة حد أعالى رماحهم صفاء ولمعاناً يجعلها أشد فتكا بمن تصيبه وتلمسه، فبحث عن شيء تتجلى فيه هذه الصفات بقوة فوجدها في صورة (لهبان الجمر) وهو اشتعال النار إذا خلصت من الدخان. فشبهها بـــه، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الشكل المخصوص مع الصفاء واللمعان وشـــدة الإيلام والفتك، فطرفا التشبيه ووجهه كلها محسوسة تدرك بالحواس الظاهرة.

ولاشك أن وجه الشبه يبدو أقوى في المشبه به، ومن ثم قصد الشاعر إلى إلحاق المشبه بالمشبه به في هذه الصفات، وعمد إلى أن يخيل للرائى أن المشبه هو المشبه به عن طريق اصطفاء التعبير بأداة التشبيه (كأن)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق إحساسه بمعانيه، وشدة وعيه وإدراكه لأدواته البيانية الناطقة بتجربته، المصورة لمشاعره.

وأمام هذا المشهد المفزع والموقف الرعيب، يبدو الشاعر متماسكا وقوياً فيقول مرتباً ما بعد الفاء على ما قبلها:

فلَـم أَنْكُـلْ ولم أَجْـبُنْ[1] ولكـنْ يَمَمْتُ بها أَبا صَخْرِ بنَ عَمْرِو
شَـكَكْتُ مَجَـامِعَ الأَوصـالِ منـهُ بنَافِـذَةٍ علـى دَهَـشٍ وذُعْـرِ
تَركـتُ الـرُّمحَ يبْـرُقُ في صَـلاَهُ كـأَنَّ سِـنانَهُ خُرْطُـومُ نَسْـرِ
فـإِن يَبْـرَأ فلـم أَنْفِـثْ عليـه وإِنْ يَهْلِكْ فذلكَ كان قَدْرِي

---

(١) الجبان: الهيوب للأشياء لا يقدم عليها. جَبُن جبناً تهيب الإقـدام علـى مـا لا ينبغـى أن يخاف.: ينظر: لسان العرب، مادة (جبن).

فقوله:(فلم أنكل ولم أجبن) يصور ثباته وشجاعته حينما أبصر هذه الصورة البشعة لرماح المتربصين به.

نكل عن الأمر نكولا: نكص ، ونكص: رجع إلى الخلف، وعن الأمر: أحجم، والنكوص: الرجوع عما كان قد اعتزمه، [1].

يقول: لم يثنى ما شاهدته منهم ومن رماحهم عن شدة طلبى لهم، ولم يحدث منى رجوع أو إحجام عما كنت قد اعتزمته، ولم أتهيب الإقدام عليهم ولكن قصدت بطعنتى هذا الرجل فيهم (أبا صخر بن عمرو).

وهو يصور ثباته الحسى والمعنوى، عن طريق تسليط حرف النفى (لم) على فعلى (أنكل – أجبن)، فالأول: يفيد نفى نكوصه ورجوعه إلى الخلف وإحجامه عما كان قد اعتزمه من شدة طلبهم، بسبب ما شاهده منهم ومن رماحهم. فالمنفى أمر حسى.

والثانى: يفيد نفى تهيبه الإقدام عليهم، فالمنفى أمر معنوى نفسى.

وقدم (لم أنكل) على (لم أجبن) لتبادره إلى الأذهان أولا في هذا السياق المعبر عن صعوبة الأمر وشدته على نفس الشاعر التى تواجه قوما يتربصون بها. فقد تقتضى الحكمة هنا النكول ولا يعد هذا جبنا، ولكن الشاعر بادر إلى نفيهما عن نفسه جميعا؛ وهذا ينبئ عن إدراك ووعى من الشاعر في ترتيب ألفاظه وتراكيبه حتى تخرج مطابقة لمقتضى الحال.

والمقصود من ذلك : تأكيد ثباته ورباطة جأشه في هذا الوقت، والتى تجلت في قوله(ولكن يممت بها أبا صخر بن عمرو). أى قصدت بطعنتى أبا صخر

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (نكل).

بن عمرو.فهو إثبات لشجاعته وإقدامه ورباطة جأشه، بعد نفى نكوله وجبنه، وقد عبر عن هذا المعنى بأسلوب القصر بطريق العطف بـ(لكن) والتى تفيد ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها مع تقرير النفى لما قبلها، وهذا هو معنى القصر القائم على الإثبات والنفى، مع أن التركيب في البيت لا يتفق مع شروط جمهرة البلاغيين والنحاة في إفادتها العطف والقصر(١).

ولكنه تركيب شائع في البيان القرآنى وفي كلام العرب، تأمل قوله تعالى:﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب آية: (٤٠)]، وقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس آية: (٣٧)] وقوله تعالى:﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[يوسف آية: (١١١)].

ويقول أبو تمام:

وَلَيسَت دِياتٍ مِن دِماءٍ هَرَقتَها حزما وَلَكِن مِن دِماءِ القَصائِدِ(٢)

وقد عدّ بعض العلماء هذه الأساليب من قبيل القصر غير الاصطلاحى

---

(١) وقد اشترط جمهور النحاة والبلاغيين لإفادة (لكن) العطف والقصر: أن يسبقها نفى أو نهى، وأن لا تقترن بالواو، وأن يليها مفرد، وهذه الشروط لا تتوافر في قول شاعرنا (فلم أنكل ولم أجبن ولكن...)البيت. حيث اقترنت بالواو ووليتها جملة، وهذه الشروط محل اختلاف بين العلماء، فابن عصفور وابن كيسان لم يشترطا الثانى، والزمخشرى لم يشترط الثالث، وكذا ابن أبى الربيع.. (مغنى اللبيب ٢٢٦/١، و شروح التلخيص٣٨٣/١).

(٢) ينظر: ديوان أبى تمام بشرح التبريزي، ٧٦/٢، ط.دار المعارف، الطبعة الرابعة.

لأنه مفاد من جملتين، ولاقتران لكن فيها بالواو مما يخالف رأى جمهرة البلاغيين[١].

المهم أن كثرة دوران هذا التركيب في الأساليب الفصيحة بعد النفى، ومقترنا بالواو هو ما جعلنا نقول بإفادة (لكن) العطف والقصر فيه، وهذا القول يؤيده أمران، أحدهما: أن ما اشترطه النحاة والبلاغيون ليس محل اتفاق بين العلماء، والآخر: أن التركيب حينما يشيع يتحدد مدلوله بواسطة القرائن التى يرد فيها.

أضف إلى ذلك أننا إذا بحثنا فى بديع القول عن شواهد تحققت فيها شروط الجمهور لم نعثر إلا على القليل، كقول أبى العلاء[٢]:

وَالدارُ تَدمُرُ مِن كُلٍّ وَما غَرَضي كَونٌ بِتَدمُرَ لَكِن مَنزِلٌ دَمَرا

وهو قول ينضب فيه ماء الشعر مما يجعله إلى النثر أقرب كما ترى.

والذين وضعوا هذه الشروط في (لكن) اكتفوا بالأمثلة التأليفية المصطنعة كقولهم :"ماقام زيد لكن عمرو"، دون أن يستشهدوا بشيء من فصيح الكلام . مما جعل قولهم في ذلك يبدو مضطربا اضطرابا شديدا.

فقد ذكر الإمام سعد الدين في باب العطف أن (لكن) لا تكون إلا لقصر القلب، بينما ظاهر كلامه في باب القصر أنها تأتى لقصر التعيين[٣]، ولذلك قال الشيخ سليمان نوار – رحمه الله – : هذا اضطراب لا أرى كيف صار الناس

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب ، د/محمد أبو موسى ، ص٩٧، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

(٢) اللزوميات لأبى العلاء المعرى، ٤٩٧/١، دار صادر، بيروت.

(٣) المطول، ص١٠٢، ٢١١ ، مطبعة أحمد كامل.

إليه[١].

وقوله (يممت بها) أى قصدت بطعنتى، فيه إضمار في مقام الإظهار حيث لم يسبق لها ذكر، وذلك لإفهام السياق إياها ووشايته بها، كقولـــه (تواصـــوا – ليرموا نحرها)، وقوله (إذا نفذتهم كرت عليهم) وحديثه عن رماحهم في قوله (إذ خفضوا العوالى كأن ظباتها لهبان جمر) . فكل هذه المعانى والتراكيب تكشف عن أن المقصود بالضمير في (بها) هو طعنة رمحه. وهو ما صرح به في الأبيات التالية.

ولعله قصد من التعبير عنها بالضمير إلى التهويل والتفظيع من شـــأنها في هذا السياق المفعم بمشاعر الذعر والفزع، المليء بالصعوبات والشدائد.

والتعبير بـــ (يممت) دون (قصدت) ينبئ عن دقة توجيه الرمح وسرعته في إصابة هذا الرجل.

يقال: أَمَّه أَمَّـــاً: أصاب أم رأسه[٢].

ومما يؤكد دقة التصويب مع السرعة الخاطفة قوله :

شَكَكْتُ[٣] مَجَامِعَ الأَوصالِ منهُ بنَافِذَةٍ على دَهَشٍ وذُعْرِ

يقول: خزقت مجتمع العظام واتنظمت مواضع اتصال المفاصل منه بطعنة نافذة وأنا في حال دهش وذعر.

هو يصور كيفية ومكان طعنته النافذة بدقة شديدة، مما ينبئ عن براعة في التصويب وسرعة خاطفة في التنفيذ، ولعل ما أثار دهشته وذعره شـــدة الأمـــر

---

(١) مذكرة في البلاغة، للشيخ سليمان نوار، ص٤٥.

(٢) ينظر: لسان العرب ، مادة (يمم).

(٣) شككته بالرمح: إذا خزقته وانتظمته. والانتظام لا يكون شكاً إلا أن يجمعُ بين شيئين بسهم أو رمح أو نحوه. (لسان العرب/ مادة (شك).

وصعوبة الموقف.

ولهذا كان التعبير بقوله (شككت) مجامع الأوصال منه، كاشفا عن إصابة الرمية ونفاذها بين مفاصله ومجتمع عظامه في ظهره.

وفي قوله (بنافذة) حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه لإفهام السياق إياه، أو لضيق المقام بسبب شدة الأمر وصعوبته على القائل. وهذا ما عبر عنه بقوله (على دهش وذعر) الذى يجسد حالة الذعر والدهشة التى سيطرت عليه وشدة تلبسه بها وهو يقوم بهذا الفعل في هذا الموقف. ولذا كان اصطفاؤه التعبير بحرف الاستعلاء (على) الذى يصور شدة تمكنه وتلبسه بالدهشة والذعر، شبه تمسكه وتلبسه بالدهش والذعر في هذا الموقف باستعلاء الراكب على مركوبه في التمكن والاستقرار، فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف، ومنه قوله تعالى:﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة آية: (٥)] شبه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه في التمكن والاستقرار..

فقوله (على دهش وذعر) قيد يصف حاله عند الطعن، ويصور تلك الحركة الداخلية في نفسه، والتى تعد عنصرا من عناصر الحسن في العبارة.

والتعبير به في هذا السياق يقصد منه كشف الجانب النفسى والشعور الداخلى المسيطر على نفسية الشاعر مما يؤكد شدة الأمر وصعوبته عليه.

فقوله (دهش) إشارة إلى ذهل واستغراب الشاعر وتعجيبه مما قام به من توجيه طعنة نافذة انتظمت مفاصل المقتول وخزقت عظامه في هذا الموقف الرعيب.

أما قوله (وذعر) فينبئ عن فزع وخوف شديدين ملكا على الشاعر جوانحه وسيطرا على نفسه عند تنفيذها ما عزمت عليه، وذلك بسبب شدة الأمر وصعوبته.

أما قوله :

تَركتُ الرُّمحَ يبْرُقُ في صَلاَهُ كأَنَّ سِنانَهُ خُرْطُومُ نَسْرِ

فهو يصور نهاية المشهد، ومآل تلك الطعنة النافذة التى خزقت عظام ظهر المقتول حتى بدا الرمح يبرق وسط ظهره.

وقوله(تركت الرمح يبرق...) ينبئ عن أن الشاعر ولى مسرعا بمجرد أن شكه بالرمح ولم يتحقق من موته وإنما اكتفى بالنظر إلى رمحه يبرق في وسط ظهر المطعون. وهذا ما يؤكده قوله (على دهش وذعر) وقوله في آخر أبياته:

فإِن يَبْرَأ فلم أَنْفِثْ عليه وإِنْ يَهْلِكْ فذلكَ كان قَدْرِي

وكذا تشبيه سنان الرمح بمنقار النسر في قوله (كأن سنانه خرطوم نسر)

وسنان الرمح: نصله وحديدته التى تكون في مقدمته والتى يقع بها الطعن. وخرطوم النسر: أراد به هنا منقار النسر. والخراطيم للسباع بمنزلة المناقير للطير[1].

فقد شبه سنان الرمح (حديدته) بمنقار النسر في صقالته وملامسته وقوة نفاذه وثقبه من تشبيه المفرد المحسوس بالمفرد المحسوس، والوجه حسى كذلك.

ومن صفات "منقار النسر": أنه معقوف مذبب ذو جوانب مزودة بقواطع حادة.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (نقر).

وقد قصد الشاعر من هذا التشبيه أن يخلع على سنان رمحه تلك الصفات التى أكسبته قوة ونفاذا، وجعلته يقطع أحشاء المطعون ويخزق عظامه فيبدو وسط ظهره وهو يبرق، مما ينبئ أيضًا عن قوة الطاعن وحدة بصره.

والتعبير عن المنقار بالخرطوم يندرج فيما سماه الإمام عبد القاهر بالاستعارة غير المفيدة حيث يستعمل فيها الشاعر عضوا من غير الجنس الذى وضع له، فالخرطوم وضع للسباع، وقد استعاره الشاعر منها ونقله عن أصله وجاز به موضعه.

ومنه قول العجاج[١]:

وَمُقلَةً وَحاجِبا مُزَجَّجا وَفاحِماً وَمَرسِناً مُسَرَّجا

يعنى: أنفا يبرق كالسراج. و "المرسن" في أصل وضعه للحيوان، لأنه الموقع الذى يقع عليه الرسن، وقد استعمله فأجراه على أنف المرأة[٢].

فشاعرنا لم يكن موفقاً حين عبر عن المنقار بالخرطوم وأضافه إلى النسر، وكان بإمكانه أن يقول: "منقار نسر" دون أن يكسر البيت.

---

(١) ديوان العجاج، تحقيق: د.سعد قناوى، ص٢٨٠، ط.دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

(٢) يقول الإمام عبد القاهر:"فهذا ونَحْوه لا يفيدك شيئاً، لو لزمتَ الأصليّ لم يحصل لك، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله "من شفتَيه" وقوله "من جَحْفلتيه" لو قاله، إنما يُعْطِيك كِلا الاسمين العضوَ المعلومَ فحسب. فاستعمالها كاستعمال الحقيقة.

بل إن الاستعارة هنا تنقص جزءاً من الفائدة، وذلك لأنها تعدت غرضا من أهم الأغراض اللغوية وهو التخصيص الذى أراده صاحب اللغة، وهذا إنما يؤدى إلى إظهار الأديب في صورة الجاهل بأوضاع اللغة، ودلالتها على معانيها. كما يؤدى إلى إيهام الاشتراك وأن الشفة والجحفلة والمشفر، ألفاظ مترادفة وكل منها يدل على العضو المخصوص في بقية أنواع الحيوان. (ينظر: أسرار البلاغة ، تحقيق : الشيخ محمود محمد شاكر، ص٣٠-٣٢) و(البيان في ضوء أساليب القرآن، د.عبد الفتاح لاشين، ص٢٣٧-٢٣٨).

فمثل هذه الاستعارة لا تهدف إلى مبالغة في تصوير المعانى، ولا تؤدى إلى فائدة بلاغية. ومن ثم أطلق عليها الإمام عبد القاهر اسم "الاستعارة غير المفيدة" لاقتصارها على اللفظ دون المعنى[١].

وقد أدى ذلك إلى ضعف الصورة التشبيهية في قوله : (كأن سنانه خرطوم نسر) عنها في قوله (كأن ظباتها لهبان جمر) وذلك لاشتمال الثانى على الأمور الآتية:

١- قوة الألفاظ ودقتها في التعبير عن المعانى.

٢- اصطفاء الكلمات الموحية والمعبرة عن المقام المتناغية مع السياق.

٣- قوة الوجه في المشبه به، وهذا يتسق مع قول العلماء والنقاد في ذلك لأن أهم مقاصد التشبيه تكمن في إلحاق الناقص في الشبه بالتام فيه[٢]، حتى تتضح صورته في الأذهان، فوجه الشبه في قوله: (كأن ظباتها لهبان جمر) هيئة الصفاء واللمعان مع قوة الفتك وشدة الإيلام، وهو يبدو جليا قويا في شكل النيران الصافية الخالصة من الدخان.

أما الوجه في قوله: (كأن سنانه خرطوم نسر) اللمعان والملامسة مع قوة الثقب والنفاذ وهو قد يبدو في المشبه أقوى منه في المشبه به، إلا إن أراد الشكل

---

(١) أما إذا هدفت إلى معنى وأريد بها غرض بلاغى، فاستعملت مثلا موضع الذم والمبالغة في الهجاء فعندئذ تكون من الاستعارة المفيدة.

ومن ذلك قولهم في مواضع الذم: "إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر"، لأنه صار بمنزلة أن يقال :كأن شفته في الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس.(ينظر:أسرار البلاغة، ص٣٦).

فالاستعارة في مثل هذا بنيت على التشبيه وأفادت ذما.(ينظر: البيان في ضوء أساليب القرآن، ص٢٣٧-٢٣٩).

فهذا وإن كان ظاهره استعارة من طريق اللفظ إلا أنه عند التحقيق ناظر إلى الاستعارة المقيدة التى فيها مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله(ينظر: أسرار البلاغة، ص٣٦).

(٢) ينظر: التصوير البيانى، د.محمد أبو موسى، ص١٣٢، ط.مكتبة وهبة.

المعقوف المذبب المزودة جوانبه بقواطع حادة دون القوة النافذة والخزق المتخلل للمفاصل المنتظم مجامع العظام.

ولعل القول باقتصار الوجه هنا على الشكل وأوصافه دون التطرق لمغزى التشبيه ومقصوده المتمثل في وجود علاقة صحيحة قوية بين الطرفين، يذهب بريق التشبيه ويبعده عن غايته وهي: وضوح الدلالة على المعنى المراد في هذا السياق. فقوله (تركت الرمح يبرق في صلاة) بعد قوله (شككت مجامع الأوصال منه بنافذة) يكشف عن سرعة الطعنة ونفاذها حتى بدا سنان الرمح يبرق وسط ظهر المطعون، كما ينبئ عن رغبته في استحضار مشهد الرمح وهو يبرق بعد خزق مجتمع عظام المطعون، وهذا ما ينبغى أن يجرى التشبيه في نهره ويندرج تحته ليقرره ويؤكده.

وهذا لا يعنى خلو التشبيه في قوله (كأن سنانه خرطوم نسر) عن الفائدة، بل إنه يكشف عن قوة رمح الشاعر وسرعة رميه ونفاذه، وكذا حدة بصره وهو يراقب مطعونه كما يراقب النسر فريسته وهو ينقرها بمنقاره[1].

المهم أن هذه الصور التشبيهية قد كشفت عن الحالة النفسية والوجدانية للشاعر في هذا الموقف، وتدرجت معها في خوالجها ونوازعها فعبرت كل صورة منها عن خالجة وشعور بعينه سيطر على نفسية الشاعر خلال مراحل هذا الموقف الشعرى.

---

(١) يقول ابن طباطبا:"فإذا اتفق لك في أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ونقر عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة، إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلامٍ لا معنى تحته....". (عيار الشعر، لابن طباطبا العلوى، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، ص١٧، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م).

فحينما شاهد بغض هؤلاء القوم وتربصهم به وبفرسه (وجزة) عزم على اختراقهم والكر عليهم بفرسه، وهنا يصور قوة اندفاعه وشدة كره بفرسه عليهم فيقول :(كأن فلوها فيهم وبكرى).

وحينما شاهد رماحهم وقد خفضوا أعاليها استعدادا للفتك به التقط لنا هذه الصورة لحد رماحهم (كأن ظباتها لهبان جمر) وهى تصور حـــدة الموقـــف، واشتعال نار البغض والشناءة له في صدورهم، ولكن ذلك لم يوهن عزيمته فينكل أو يجبن، بل قصد برمحه زعيمهم فطعنه طعنة نافذة رغم ما يكتنف جوانحه مـــن ذهول وفزع وخوف، وفي نهاية الموقف يصف الشاعر رمحه وقد اســـتقر يـــبرق وسط ظهر الرجل، ويصور سنانه بمنقار النسر:

تَركتُ الرُّمحَ يبْرُقُ في صَلاَهُ　　　كأَنَّ سِنانَهُ خُرْطُومُ نَسْرِ

وهذه الصور – أيضًا – تتلاحم في استقاء عناصرها من البيئـــة المحيطـــة والمجتمع الذى يتحرك الشاعر في ربوعه .

فصورة سرعة كر الفرس وقوة اندفاعه ونفاذه جموع الأعداء، وصـــورة حد الرمح وصورة سنانه مما يقع عليه بصر الشاعر ويحسه وحينما أراد أن يعـــبر عنها كما أحسها وشعر بها في هذا الموقف أخذ يبحث في ذهنه وخياله عن صور من صميم البيئة توضحها وتبرزها، فاستدعى خياله تلك الصور المشبهات بهـــا، وأخذ يكتشف بحسه وفكره العلاقات والمناسبات بين هذه الصور وتلك، بقصد تصوير مشاعره وأحاسيسه في هذا المقام.

المطلب الثانى

تشبيه أعلى الرمح وسنانه عند مزرد بن ضرار[١]

وفي مقام الفخر يقول مزرد بن ضرار (أخو الشماخ): (من الطويل)

ومُطَّرِدٌ[٢] لَدْنُ الكُعُوبِ[٣] كأَنما تَغشَّاهُ[٤] مُنْبَاعٌ مِن الزَّيتِ سائِلُ

أَصَمُّ[٥] إذا ما هُزَّ مَارَتْ سَرَاتُهُ[٦] كما مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمالِ المَوَائِلُ[٧]

لهُ فارِطٌ ماضِي الغِرَارِ كأَنَّهُ هِلالٌ[٨] بَدَا في ظُلْمةِ اللَّيلِ ناحِلُ

---

(١) مَزرد بن ضرار الذبيانى الغطفانى أخو الشماخ.(المفضليات، ص١١٩).

(٢) مُطَّرِد: اطرد الماء إذا تتابع في سيلانه. يعنى رمحا إذا هزَّ اضطرب كله واطرد في اضطرابه، كاطراد الماء في جريه وهذا المعنى لم يذكر في المعاجم. (المفضليات، ص١٢٣، ٣٠٨).

(٣) لدن الكعوب: لين الكعوب، جمع كعب، والكعب: العظم الناتئ عند ملتقى الساق والقدم،ومن القصب والقنا: العُقدة بين الأنبوبتين.(ينظر: لسان العرب، مادة (كعب).

(٤) تغشاه: الغِشاءُ: الغِطاءُ. غَشَّيْت الشيءَ تَغْشِية إذا غَطَّيْته. وغَشِيَه الأَمْرُ وتغَشَّاه وأَغْشَيْته إِيَّاه وغَشَّيْته. (لسان العرب، ١٢٦/١٥، مادة غشا).

(٥) أصمّ: ليس بأجوف." الصَّمَمُ: انْسِدادُ الأُذن وثِقَلُ السمع. الأصم: الذى لا يسمع .. وفي القنا: اكتناز جوفها، وفي الحجر: صلابته. وفي الأمر: شدته. ويقال: أذن صماء وقناة صماء وحجر أصم، وفتنة صماء.(لسان العرب، ٣٤٢/١٢، مادة صمم)

(٦) سراته: أعلاه (سراة النهار: وقت ارتفاع الشمس في السماء. وسراة الفرس: أعلى متنه. وسراة كل شيء أعلاه وظهره ووسطه.

(٧) الموائل: المحاذر الذى يلتمس الملجأ ويطلب النجاة.(لسان العرب، مادة (وأل).

(٨) هلال: الهِلالُ: غرة القمر حين يُهِلُّه الناسُ في غرة الشهر، ويسمَّى القمر لليلتين من أَول الشهر هِلالاً، ولليلتين من آخر الشهر ستٍّ وعشرين وسبعٍ وعشرين = =هِلالاً، ويسمى

السياق والجو العام للقصيدة :

هذه الأبيات من قصيدة لمزرد بن ضرار الذبيانى الغطفانى أخو الشماخ.

وقد تحدث الشاعر فيها عن صحوته من الحب وأسفه للمشيب، واستعاد ذكريات الشباب، فنعت صاحبته في غزل وتشبيب.

ثم فخر بشجاعته، ونوه بجواده وفرسه، ووصف سلاحه: درعه، وبيضته، وترسه، وسيفه، ورمحه.

وأنحى على من ينتقصه بظهر الغيب، وتوعده بالهجاء الممض الذى يتناقله الرواة مفتخرا بشعره، معتزا بقوته فيه.

ثم صار إلى وصف صائد يصيد بفرسه وأكلبه، وقد فقد هذا الصائد كلبين فساءت حاله، واستجدى الناس فلم يظفروه، فأشارت عليه زوجه أن يستغنى بالماء عن الطعام فأجابها، وحاول النوم فاستعصى عليه[1].

الدراسة والتحليل:

في هذه الأبيات يصف الشاعر رمحه بأوصاف تكشف جودته وخلوصه، وتبرز دقة صنعته، وهذه الصفات هى:

اللين، والاضطراب عند هزه، وتقوس سنانه وصفائه، ودقة حده، وقد جلى هذه الصفات في ثلاث صور تشبيهية:

الصورة الأولى: وجاءت في قوله:(**ومطرد لدن الكعوب**....البيت

ما بين ذلك قمراً. قال أبو العباس: وسمي الهلالُ هِلالاً لأَن الناس يرفعون أَصواتهم بالإِخبار عنه. أَهَلَّ الرجلُ واستهل: إذا رفع صوته، وأهل المحرم: إذا لبى ورفع صوته.(لسان العرب، هلل)

(١) المفضليات ، ص٩٣.

والمقصود وصف اضطراب الرمح واطراده في ذلك حتى صار يشبه اطراد الماء في جريه وسيلانه . وهذا ما عبر عنه بقوله (ومطرد) يعنى: رمحا مطردا في اضطرابه إذا هُزّ وتحرك للينه، وهو معطوف على ما قبله في سياق افتخاره بنفسه ووصف جواده وفرسه وأسلحته (الدرع، والبيضة، والترس، والسيف، والرمح)، ففي التعبير استعارة بالكناية.

وفي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ما ينبئ عن مقصود الشاعر في تقرير رسوخ هذه الصفة في رمحه ولزومها له حتى صارت علما عليه، وقد زادها رسوخا فيه التعبير عنها بصيغة الاسم (مطرد) والتى تصور حركة الرمح وتتابعها في سهولة عند اهتزازه بحركة اطراد الماء وتتابع سيلانه. وهذا يشى بلطف وخفة الحركة التى تجعل الرمح يصيب هدفه بسهولة.

وبعد أن وصف اضطرابه كله للينه، أردف ذلك بوصف كعوبه باللين – أيضًا – حتى لا تعيق حركته ولينه فقال (لدن الكعوب) أى : لين العُقد التى تفصل بين أجزائه (جمع عقدة) وهي التى تكون بين الأنبوبتين.

والمراد من ذلك: وصف كل أجزائه باللين وسيولة الحركة حتى التى قد يظن فيها عدم اللين وهي كعوبه.

وهذه الألفاظ المصورة التى قصد الشاعر أن يُبرز من خلالها لين رمحه وسيولة حركته قد لا تفى بكشف وتوضيح تلك الحال في رمحه، ومن ثم لجأ إلى أسلوب التشبيه بأداته (كأن) ليبرزها ويزيدها جلاء ووضوحا فقال:

..كأنما تَغشَّاهُ مُنْبَاعٌ مِن الزَّيتِ سائِلُ

يعنى: أن رمحه في هذه الحال من اللين وسيولة الحركة عند هزه يبدو وكأنه قد غطاه الزيت السائل المتتابع السيلان مما يجعله لين القوام سهل الحركة

صافيا لامعا.

وتلك صورة بارعة في وصف اللين وسيولة الحركة تقرر وتؤكد مقصود الشاعر في كشف طبيعة رمحه وبيان مقدار حاله من الاضطراب واللين وسيولة الحركة، التى جسدها وأبرزها أسلوب التشبيه في أكمل صورة، وبينها أتم بيان وأوفاه؛ بما أضاف إليها من نبض وحياة زادت الرمح لينا وحركة وسيولة وطراوة، وصفاء ولمعانا، وهذا هو التفصيل الذى امتدحه البلاغيون في التشبيه، وعرفوه بقولهم: أن ينظر المتكلم في أكثر من وصف واحد لشيء واحد أو أكثر، فيفصل بعضها من بعض بمزيد التأمل والتفكر، وينظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة[١].

وصورة التفصيل هنا تتجلى فيما قام به الشاعر من ملاحظة خصوصية ما في الوصف الذى قصد إشراك الطرفين فيه وهو اللين وسيولة الحركة، فهو لم يكتف بذكر الوصف مجملا، بل نظر إلى ما فيه من طراوة وصفاء وملامسة تحقق الشبه وتقويه بين طرفى التشبيه .

واصطفاء التعبير بالزيت السائل المتتابع السيلان، لما فيه من السيولة والطراوة والصفاء، فهو يتخلل العيدان الجافة الصلبة ويغمرها حتى يحيلها لينة طرية سهلة الحركة.

وتأمل التعبير بقوله (تغشَّاه) وما فيه من إبراز صورة هذا الرمح اللين المتتابع الحركة في سيولة، وكأنه قد غطاه هذا الزيت السائل المتتابع السيلان، وهذا أبلغ في وصف لينه وسيولة حركته وتتابعها، حتى بدا في صورة هي أبهى

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، ص١٦٦-١٦٩، والإيضاح والبغية عليه، ص٤٣٨-٤٣٩.

وأزين وآنق وأعجب. وتلك خصوصية الصورة التشبيهية وطاقتها الكامنة المعجبة، وخيالها المبدع.

الصورة الثانية: وجاءت في قوله :

أَصَمُّ إِذا ما هُزَّ مَارَتْ سَرَاتُهُ كما مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمالِ المَوَائِلُ

يصف رمحه باكتناز جوفه وامتلائه ويقرر لينه وسيولة حركته واضطرابه.

يقول: هذا الرمح ليس بأجوف بل هو مكتنز الجوف، ممتلئ مع لينه مما يجعل حركته متتابعة في سيولة ويسر.

هو يريد أن يؤكد بقوله (أصم) على أن لينه واضطرابه ليس مترتبا على خلو جوفه أو على ضعف في قناته وعوده.

وقوله (إِذا ما هُزَّ مَارَتْ سَرَاتُهُ) أى: حينما يهز ويحرك يضطرب أعلاه وسراة كل شيء : أعلاه[1].

وقد أراد الشاعر أن يجسد صورة موران أعلى رمحه ويزيدها وضوحا وبيانا فألحقها بصورة طريفة معبرة حيث قال:

... إِذا ما هُزَّ مَارَتْ سَرَاتُهُ كما مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمالِ المَوَائِلُ[2]

شبه هيئة اضطراب أعلى رمحه إذا هزّ باضطراب ثعبان في عدوه على الرمال يلتمس الملجأ. والوجه: اللين وسرعة الحركة المضطربة ذهابا ومجيئا.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (سرا).

(٢) والثعبان: العظيم من الحيات.

وقول (كما مار) : (ما) مع الفصل في تقدير مصدر، يشهد لصحة قول سيبويه، في أنه حرف، أنه استغنى عن رجوع ضمير إليه. (التبريزي، ٤٧٨/١).

له فارط..... ويروى (له رائد) يعنى: السنان، وشبهه في لمعانه ودقته، بهلال دقيق في ظلمة الليل. (التبريزي، ٤٧٩/١).

والمشبه: اضطراب حركة أعلى الرمح أو وسطه مقيد بقوله: (إذا ما هز) أى: أن هذا الرمح اللين كله عندما يهز يتحرك ويضطرب أعلاه ارتفاعا وانخفاضا، ويمينا وشمالا في سهولة ولين، وهذا الاضطراب الذى في أعلاه حينئذ يشبه اضطراب حركة حية عظيمة حين تجيء وتذهب وتتحرك في كل الاتجاهات على الرمال اللينة حذرا من الموت، وطلبا للملجأ. والمشبه به: مقيد كذلك بإضافة (الثعبان) إلى الرمال، وبوصف (الموائل) في قوله: (كما مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمالِ المَوَائِلُ).

ووجه الشبه هنا مركب حسي، جردت هيئة الحركة فيه عن كل وصف غيرها للجسم وتلك إحدى الصور البديعة للمركب الحسى، والتى يتحقق التركيب فيها من اختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة له، كأن يتحرك بعضه إلى اليمين وبعضه إلى الشمال، وبعضه إلى العلو وبعضه إلى السفل، وذلك كحركة المصحف في قول ابن المعتز[1]:

وَكَأَنَّ البَرقَ مُصحَفُ قارٍ فَإنطِباقاً مَرَّةً وَإنفِتاحا

ففي هذه الحركة تركيب؛ لأنه يتحرك في الحالتين إلى جهتين في كل حالة إلى جهة.

أما حين تتحد الحركة إلى جهة واحدة فلا تركيب فيها، وذلك كحركة الدولاب (الساقية) والسهم المنطلق.وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر [2].

وإنما جعله ثعبان الرمال وأضافه إليها، لأن حركته في الرمل تكون أسرع

---

(١) ديوان ابن المعتز، تحقيق: كرم البستانى، ص١٤١، ط.دار صادر.

(٢) ينظر: الإيضاح ومعه البغية، ص٤٠٤، ٤٠٥.

للين الرمل، فإذا ما أضيف إليه لين جسم الثعبان كان أدعى لسرعة الحركة واختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة له، ومما يقوى اختلاط الحركات السريعة للجسم وتركيبها قوله (الموائل) ومعناه:المحاذر الذى يلتمس الملجأ ويطلب النجاة.

فالخائف المحاذر الطالب للملجأ والنجاة تختلط حركاته السريعة وتذهب في اتجاهات مختلفة تلتمس فيها الملجأ وتطلب النجاة، وتلك غاية التشبيه ومغزى إلحاق المشبه بالمشبه به في هذه الصورة التشبيهية الكاشفة عن اضطراب وسرعة واختلاط حركات أعلى رمحه، وذهابها إلى جهات مختلفة حينما يهز الرمح الأصم اللدن الكعوب.

وبذا تكون هذه اللقطة التشبيهية مقوية لمغزى التشبيه في البيت السابق، ومفصلة لإحدى جهات لين هذا الرمح، بما كشفت عنه من الوصف الدقيق لاضطراب أعلاه وتحركه عند اهتزازه.

والمهم أن التشبيه هنا جاء معقودا على تجريد هيئة الحركة، ثم لطف وغرب لما فيه من التفصيل والتركيب، حيث لاحظ الشاعر اضطراب حركات أعلى رمحه ارتفاعا وانخفاضا حينما يُهزّ، وشبهها باضطراب حركات ثعبان الرمال الموائل. وذلك أن الثعبان إذا تحرك ولاسيما على الرمال الناعمة واعتراه الخوف والذعر وأخذ يطلب الملجأ محاذرا كانت له حركات متفاوتة في جهات مختلفة على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى، فلا يتبينه الطرف متجها يمينا حتى يراه متجهاً شمالا، ولا يرقبه يعلو حتى ينحط مستفلا، وذلك أشبه شيء بحال سراة الرمح وهيئة حركاتها عند اهتزازه.

والتفصيل والتركيب هنا يشبه التفصيل والتركيب القائم بالتشبيه المعقود

على تجريد هيئة الحركة في قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتقاذف الأمواج بها [١]: (من الكامل)

تَقِصُ السفينُ بجانبَيه كما يَنْزُو الرُّبَاحُ خَلا لَهُ كَرَعُ

شبه السفينه في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه وقد خلا له كرع (وهو ماء السماء) [٢].

الصورة الثالثة: وحتى تكتمل الصورة المثلى لرمح الشاعر جاء هذا التشبيه الكاشف عن صفاء ودقة سنانه ولمعانه وتقوسه ودقة حده :

لهُ فارِطٌ[٣] ماضِي الغِرَارِ كأَنَّهُ هِلاَلٌ بَدَا في ظُلْمةِ اللَّيلِ[٤] ناحِلُ

شبه هيئة سنان رمحه في شكله ولمعانه ودقته بهيئة هلال دقيق قد بدا في ظلمة الليل.

ووجه الشبه: الهيئة المكونة من الشكل المقوس واللمعان والدقة، فهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس والوجه حسى، لإمكان إدراك الجميع بالحواس الظاهرة وغرض التشبيه هنا: هو بيان مقدار حال المشبه في الشكل واللمعان والدقة ومضاء حدّه.

ومقصود الشاعر إلى إعلاء شأن رمحه بتعظيم شأن نصله وتفخيمه، يشهد بذلك التنكير في قوله (فارط)، والوصف في قوله (ماضى الغرار) فكلاهما يقرر

---

(١) ذكره الشيخ عبد القاهر في الأسرار ، ص١٨٣، ولم أجده في ديوانه المطبوع، وقال الشيخ محمود شاكر:"ولم أجده في ديوانه المطبوع، ولا في المخطوط عندى".

(٢) ينظر: أسرار البلاغة، ص١٨٣.

(٣) فارطه: سنانه، وروى (له رائد) يعنى سنانا، وغراره: حَدُّه

فارطه: سنانه لأنه يتقدمه. (ينظر: شرح الأنبارى للمفضليات، ٢٤١/١).

(٤)ويروى (في هَبوة الليل). (ينظر: شرح الأنبارى للمفضليات، ٢٤١/١).

أمر التعظيم والتفخيم، ويبرز مدى لمعان ودقة سنان هذا الرمح ومضاء حـــده . وبذا تتآزر ألفاظ التشبيه وتراكيبه وأساليبه في إبراز وكشف المعنى المقصود.

وسمى سنان الرمح فارطا، لأنه يتقدمه ويقع في مقدمته، يؤكد ذلك رواية (له رائد) ورائد القوم هو من يتقدمهم في الأمور كلها، وكأنه يقصد بهذا التعبير أن يترل النصل من الرمح مترلة الرائد المتقدم لرفعته وعلو شأنه إذ به يقع الطعن وتتحقق البغية، فقد زاد سنان رمحه علوا ورفعة حين شبهه بالهلال في السماء، إلى جانب ما أضفاه هذا التشبيه على السنان من تصوير لمعانه ودقته ومضاء حده.

وأداة التشبيه (كأن) تقوى الشبه بين الطرفين وتزيده جلاء ووضـــوحا، مع أن الطرفين في غاية البعد من حيث الجنس والمكان والغاية المرجوة، ولكـــن أسلوب التشبيه قرب المسافة بينهما وأبرز مواطن التقائهما وألحق المشبه بالمشـــبه به ليضفى عليه بعضا من صفائه، وليعلى شأنه بين أقرانه عن أفراد جنســـه بمـــا يكشف عنه من بيان مقدار حاله.

وهذا كله نابع من منبع فياض هو خيال الشاعر المبدع ورهافـــة حســـه وسعة فكره.

وتنكير المشبه به (هلال) لإفادة التنويع، فهو يقصد نوعا من الأهلة وهو ما يبدو في ظلمة الليل آخر الشهر، أى ما يئول إليه حال القمر في الأيام الأخيرة من الشهر، من دقة ونحول مع لمعان يبرز في ظلمة الليل وآخره، والبيان القرآنى يشهد بتنوع الهلال وتغير أوصافه لتنوع أوقات ظهوره من الشهر، ولذلك جاء التعبير بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[البقرة آية: (١٨٩)].

وقد كانوا سألوه (ﷺ) عن علة تهلّله وتغيره[١].

وجملة (بدا في ظلمة الليل) فى محل رفع صفة لـــ (هلال)، أى كأن سنان رمحه هلال قد ظهر في ظلمة الليل، والليل يكون أشد ظلاما عند آخره قبيل طلوع الفجر، وهذا يدعم أن المقصود: الهلال قبل نهاية الشهر؛ لأن دقة الهلال ونحوله غرة الشهر، قد لا يتحقق فيه لمعان الهلال لظهوره أول الليل، ولعل هذا ما دفع الشاعر لوصف الهلال بهذه الجملة (بدا في ظلمة الليل) وتقديمه على صفة (ناحل) التى تؤكد حقيقة الهلال في دقته.

فقوله (ناحل): وصف يؤكد دقة الهلال وتقوسه، فهو من الصفات الملازمة للهلال يقال:"قمر ناحل: إذا دق واستقوس".[٢]

---

(١) أخرج أبو نعيم وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة قالا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد، حتى يعظم ويستوى ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد ؟ فنزل قوله تعالى:{يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ}.(تاريخ دمشق: لابن عساكر (ت٥٧١هـ) ، ٢٥/١، تحقيق: محيى الدين العمرى، ط.دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م ، وعمدة القارى ، ٣٤٣/١٤، و معرفة الصحابة، ٢٦٩/٣).

الهلال: غرة الشهر إلى سبع ليال من الشهر، والقمر في أواخر الشهر من ليلة السادس والعشرين منه إلى آخره.(المعجم الوجيز، هلّ، ص٦٥١).

وقيل: وقبل نهايته بمثلها.(معجم ألفاظ القرآن،مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٥٣/٢).

وشبه به في الهيئة السنان الذى يصاد به وله شعبتان كرمى الهلال. وضرب من الحيات، والماء المستدير القليل أسفل الرَّكّى، وطرف الرحا: إذا انكسر منه فيقال لكل واحد منهما هلال.(المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهانى، ص٥٤٥، ط.دار الثقافة، ويراجع لسان العرب، ٧٢/١١، هلل).

(٢) لسان العرب، ٦٥٠/١١، مادة (نحل).

وعند تأملنا لتلك الصور التشبيهية الثلاث التى كشف من خلالها الشاعر عن حقيقة رمحه وصنعته حيث كان يخوض به غمار الحروب وهو الفارس المشهور، نجده قد ركز على الآتى:

١- اصطفاء التعبير بالألفاظ المصورة والمعبرة عن أدق الصفات المكونة لبناء رمحه، وذلك كألفاظ (مطرد – لدن الكعوب – أصم – ماضى الغرار).

فقوله (مطرد) يصف بدقة اضطراب الرمح كله للينه وسهولته حتى صار يشبه اطراد الماء في جريه بقوله (لدن الكعوب) بيان كاشف عن لين كعوبه (عُقَده) التى تقع بين أنابيبه والأجزاء المكونة لعوده.

وقوله (أصم) يصور اكتناز جوفه ويؤكد لينه وشدة تماسك أجزائه.

وقوله (ماضى الغرا) يصف دقة حَدّه ومضاءه عند الطعن به.

٢- استخدام أداتى التشبيه (كأن) و (الكاف)، وقد استخدم (كأن) في الصورتين الأولى (كأَنما تَغشَّاهُ مُنْبَاغٌ مِن الزَّيتِ سائِلُ) والثالثة (كأَنَّهُ هِلاَلٌ بَدَا في ظُلْمةِ اللَّيلِ ناحِلُ) وذلك حين قصد إلى تصوير ذات الرمح وأجزائه المكونة له وحقيقته في نفسه، وهذا يقتضى إبراز قوة الصلة والشبه بينه بين المشبه به، حتى تتجلى صورة المشبه وتنكشف حقيقته على أتم وجه وأكمله. ولعل إيلاء المشبه لـ(كأن) وقربه من المشبه به ما يقوى الصلة بينهما ويغرى بشدة تناغيهما في الشبه.

أما (الكاف) فقد استعان بها حين قصد تصوير اضطراب حركة سراة رمحه عند اهتزازه، وذلك بعد أن قرر اضطراب ولين عود رمحه كله، ومن ثم كانت الكاف وسيلته ليلحق صورة المشبه بصورة المشبه به (مَارَتْ سَرَاتُهُ كمَا مَارَ ثُعْبَانُ الرِّمالِ المَوَائِلُ)، بقصد بيان إحدى صفاته التى تعتريه حين يُهزّ، وهذا

يدل على وعى الشاعر وقوة إدراكه لأدواته.

المطلب الثالث

تشبيه طول الرماح عند سلامة بن جندل[١]

وفي مقام الفخر بقومه يقول سلامة بن جندل: (من البسيط)

هَمَّتْ مَعَدٌّ بِنَا هَمًّا فَنَهْنَهَهَا   عنّا طِعانٌ غيرُ تذْبِيبِ
بالمَشْرِفِّي ومَصْقُولٍ أَسِنَّتُها   صُمِّ العَوامِلِ صَدْقَاتِ الأَنابِيبِ[٢]

السياق والجو العام للقصيدة:

في هذه القصيدة أسف الشاعر على شبابه ، ثم فخر بجوده وجود قبيلته، واعتز بقومه (بنى سعد)، في السلم والحرب خطباء شجعانا، ونعت خيلهم ونفعها، ثم عرض (لبنى مُعد) وأنهم هموا بقومه فرُدوا بالحرب والطعان، ووصف السيوف والرماح، وفخر بفرسان قومه ونجدهم للفَزِع.[٣]

الدراسة والتحليل:

تأتى هذه الأبيات في سياق فخر الشاعر بقومه (بنى سعد) واعتزازه بهم،

---

(١) شاعر جاهلى قديم، كان من فرسان العرب المعدودين، وكان أحد من يصف الخيل فيحسن، وأجود شعره هذه القصيدة، وصفه ابن رشيق بأنه من المقلين المحكمين.(ينظر: الشعر والشعراء ، لابن قتيبة، ص٢٢٩، وطبقات فحول الشعراء، لابن سلام، ص٣١، والعمدة،لابن رشيق القيروانى،١/٩٠، ط.دار الطلائع).

(٢) ينظر: المفضليات، ص٢٩٠، والقصيدة في ديوانه ص٨٧-١٣١، تحقيق د.فخر الدين قباوة، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م).

(٣) ينظر: السابق نفسه.

فهم الخطباء والفرسان الشجعان في السلم وفى الحرب، وفيها يذكر همّ بنى معد (قبائل ربيعة ومضر) وعزمهم على النيل من قومه، ولكنهم رُدوا بالضرب والطعان والقتل بالسيوف والرماح وقد ذكر السيوف بلفظ (المشرفىّ) فنسبها إلى موطن صناعتها . أما الرماح فقد فصل القول فيها بالأوصاف المبينة والصورة الكاشفة.

قوله (همت معد بنا هما) أى نوت وأرادت بنا شرا وعزمت عليه[1].

وفي ذكر المصدر (هما) تأكيد لجدية الهم والإرادة والعزم. وتنكيره للتهوين والحط من شأنه لأنهم لم يحققوا ما أرادوا وعزموا عليه من إنزال الشر والهزيمة بـ"بنى سعد" قوم الشاعر . ولذلك رتب على همهم قوله بفاء الترتيب والتعقيب (**فَنَهْنَهَا عنَّا طِعانٌ غيرُ تذْبِيبِ**) أى: كفها عنا طعان وضرب قاتلين غير ضعيفين.

ويلحظ القارئ في قوله (فَنَهْنَهَا) ثقلا في النطق بسبب التنافر في حروف الكلمة الناشئ عن تكرار حرف الهاء ثلاث مرات في كلمة واحدة وخمس مرات في شطر واحد من البيت (همت–هما– فَنَهْنَهَا).

النهنهة: الكف والزجر، تقول: نهنه عن الشيء : زجره وكفه عن الوصول إليه[2].

ولعل الشاعر قصد من ذلك تصوير شدة الكف وقوة الزجر والردع التى واجهوهم بها وحالت دون وصولهم إلى بغيتهم، ففي التعبير تهوين وتحقير لقوة عدوهم وتهويل وتعظيم لقوة قومه في ردع العدو وزجره ومنعه من الوصول إلى

---

(١) ينظر: لسان العرب، ٦٢٠/١٢، مادة (همم).

(٢) لسان العرب، ٥٥٠/١٣، مادة (نهنه)

ما يريد.

يؤكد ذلك التنكير في قوله (طعان وضرب) أى: كفها عنّا طعان بالرماح وضرب بالسيوف، والتعبير بقوله (غير تذبيب) أى: غير ضعيف، يفيد نفى أن يكون الضرب ضعيفا بقصد الدفع والذب كما يذبّ السباع، والمعنى: لم يكن ضربنا إياهم لنردهم ولكن ضربناهم لنقتلهم[١].

وبعد أن أوجز القول في حرب الردع والكف والزجر شرح يفصل في العُدة وأدوات الردع فقال:

بالمَشْرِفِّى ومَصْقُولٍ أَسِنَّتُها صُمٌّ العَوامِلِ صَدْقَاتِ الأَنابيبِ

والمراد بالمشرفى: السيوف وقد نسبه إلى موطن صناعته (المشارف) وهى قرى للعرب تدنو من الريف.

وقوله (ومصقول أسنتها) أى: برماح لها أسنة مصقولة[٢].

والمعنى: كفها عنا ضرب بالسيوف المشرفية وطعان برماح لها أسنة مصقولة.

ففي التعبير لف ونشر مفصل معكوس[٣] حيث جاء ترتيب النشر

---

(١) ديوان المفضليات ، شرح الأنبارى، ٣١٢/١.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) اللف والنشر: هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه.(الإيضاح ، للخطيب، ومعه البغية، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص٦٠٠، ط. مكتبة الآداب، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

وهو قسمان: الأول: ذكر متعدد على جهة التفصيل ثم ذكر ما لكل واحد .... إلخ . والآخر: ذكر متعدد على جهة الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد...إلخ، والأول ضربان: لأن النشر إما أن يكون على ترتيب اللف، وإما على غير ترتيبه وهو المعكوس.(بغية الإيضاح، ص٦٠٠-

(بالمشرفى ومصقول) على عكس ترتيب اللف (طعان وضرب)، فقوله (بالمشرفى) يعود إلى ضرب، وقوله (ومصقول أسنتها) يعود إلى (طعان)، فالأول في النشر عاد إلى الأخير في اللف والأخير في النشر عاد إلى الأول في اللف.

ولعل وراء هذا الترتيب المعكوس إشارة إلى عظم دور الطعن ومنزلة الرماح في هذا الكف والردع، ومن ثم جعل مطلع الكلام ومقطعه بيانا لحقيقة رماحهم وتفصيلا وتصويرا لصفاتها. بينما اكتفى بالإشارة إلى السيوف بكلمة (المشرفى) بعد ذكر أثرها بقوله (وضرب غير تذبيب)، وبذا يتجلى تشكيل البيت على نهج التشكيل الدائرى الذى يومئ بإحاطة طعن الرماح بضرب السيوف لكونه الغالب في تلك الحرب الدفاعية الرادعة.

وهذا من البديع غير أن ابن الأثير لا يرتضيه فقد عاب صنيع الفرزدق في قوله[1]:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت منهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم

حيث رتب بالنشر عكس ترتيب اللف، لأن قوله (معطيا) يرجع إلى كونه حاملا، أما قوله (مطاعنا) فيرجع إلى كونه طريدا، وهو كما نرى على غير ترتيب اللف، غير أنه يشفع له بأن ذلك أداه إليه النظم والوزن، ولذا هو أشد عيبا حين يقع من الناثر.

وورود هذا النوع من اللف والنشر في البيان القرآنى بكثرة يضعف ما

---

٦٠١).

(١) الإيضاح، ج١/٥٣٦، والصناعتين لأبى هلال العسكرى، ص٣٣٧، ط.دار الكتب العلمية، بيروت.

ذهب إليه ابن الأثير، تأمل قول الحق سبحانه :﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ .....﴾ [آل عمران آية: (١٠٦-١٠٧)].

تجد البيان العلى قد لفهم أولا على سبيل التفصيل ثم نشرهم على عكس ما لفهم، ومن وراء هذا الترتيب المعكوس دقائق بيانية ورقائق إيمانية، فإن حق الترتيب أن يبدأ في النشر بذكر المؤمنين الذين ابيضت وجوههم مثلما بدأ بهم في اللف لشرفهم وتقدمهم في الفضل، لكنه أخر ذكرهم في النشر ليكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم، فيكون تشكيل الآيات على نهج التشكيل الدائرى، الذى يعطى إيحاء بإحاطة المؤمنين بالكافرين .

أضف إلى هذا – وهذا هو الأهم – أن المقام مقام تحذير عن التشبه بهم والاقتداء بسننهم والترهيب من سوء عقباهم وزيادة النكاية بأهل صراطهم المعكوس المعوج[١].

وقوله (صم العوامل) وصف للرماح باكتناز الجوف وامتلائه، أى عوامل رماحهم صم، أى لا جوف لها فهى مكتنزة الجوف، وعامل الرمح على قدر ذراع من أعلاه، ويسمى عاملا لأنه الذى يُعمل به[٢]. وإذا كان العامل أصم كان الرمح كله كذلك[٣].

فاصطفاء وصف العوامل بالصمّ لإبراز علو مكانتها من الرماح، إذ بها تثبت الأسنة التى يقع بها الطعن والقتل.

---

(١) ينظر: التحبير، د.محمود توفيق، ص٢٢٠.

(٢) ينظر: شرح الأنبارى على المفضليات، ٣١٢/١.

(٣) شرح الأنبارى، ٣١٢/١.

وقوله (صَدْقَاتِ الأَنابِيبِ) أى صلبات الأنابيب، جمع أنبوب، وهوما بين كل عقدتين[1] في عود الرمح.

وقوله:

يَجْلُو أَسِنَّتَها فِتْيانُ عادِيَةٍ لا مُقْرِفِينَ ولا سُودٍ جَعَابِيبِ

وصف للفتيان الذين يصلحون هذه الرماح ويتعهدونها ويكشفون الصدأ عنها، فهم فتيان حرب أقوياء ليسوا قريبين أو مخالطين الهجنة، وليسوا سودا قصارا ضعافا.

والمراد: وصفهم بالقوة والشجاعة وعراقة الأصل واستواء البدن ومتانته.

وهذا ينعكس على ما يقومون به من إصلاح هذه الرماح وتعهدها ومعالجتها حتى تبدو قوية ناصعة الأسنة.

والتعبير بالفعل المضارع في قوله: (يجلو أسنتها) لاستحضار ما يقومون به من تجدد كشف الصدأ عن أسنة رماحهم، واستمرار قيامهم بعملهم، وبذا تكون أسنة رماحهم بيضاء ناصعة قوية طوال الأوقات.

وإضافة (فتيان) لـ (عادية) ووصفهم بالاسم المنفى في قوله (لا مُقْرِفِينَ ولا سُودٍ جَعَابِيبِ) لتأكيد ثبوت وصفهم بالقوة واستواء الأصل والبدن.

ويصور استواء قناها وعدم زيغها عند تسديد الطعن بها فيقول :

سَوَّى الثِّقَافُ قَنَاها فَهْيَ مُحْكَمَةٌ قليلةُ الزَّيْغِ من سَنٍّ وتَرْكِيبِ

والثقاف: خشبة في وسطها ثقب يقوّم بها الرماح إذا اعوجت. والمثقف: الرجل الذى يقوّم الرماح. والمراد: بيان استواء قنا رماحهم واستقامتها بواسطة

---

(١) لسان العرب، مادة (عقد).

هذه الخشبة، ومن ثم فهى محكمة الصناعة، دقيقة مستوية لا تزيغ أبدا عند تسديد الطعن بها وذلك لحسن سنها وجودة تركيب النصال فيها.

فقوله (قليلة الزيغ) لم يرد أن بها من الاعوجاج والزيغ قليلا، بل أراد أن لا زيغ فيها البتة، وذلك على استعمال قليل بمعنى النفى، مثل: قليل الحياء، وقليل التشكى[١].

ويعود لتأكيد وصف اسنتها بشدة الصفاء فيقول:

زُرقاً أَسِنَّتُها حُمْراً مُثَقَّفَةً أَطْرَافُهُنَّ مقِيلٌ لِليَعَاسِيبِ

جعل أسنتها زرقا لشدة صفائها، وحمرا لأنه اذا اشتد الصفاء خالطته شُكْلة (وهي الحمرة تختلط بالبياض)[٢].

وقوله (مثقفة) أى مستوية قد سواها الثقاف، وبذا تكون هذه الرماح مستوية القنا والأسنة، وهذا يؤكد نفى الزيغ والاعوجاج عنها عند التسديد والطعن بها.

والمراد بقوله (أطرافهن مقيل لليعاسيب) أنهم يأسرون ويقتلون الرؤساء من أعدائهم فيرفعون رؤوسهم على أسنتها[٣].

وتأمل التعبير بقوله (مقيل لليعاسيب) وما فيه من تصوير لمشهد أطراف أسنة رماحهم حين يقتل بها رؤساء أعدائهم، حيث يقتلون فترفع رؤوسهم على أسنة رماحهم، وتستقر وتقيل عند أطرافها، يقال: هو يعسوب الجيش : أى رئيسهم. وهذا تهكم وتوبيخ برؤساء أعدائهم.

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ، ٢٨٥/١، وشرح الحماسة للمرزوقى، ٩٤/١-٩٥.

(٢) لسان العرب، مادة (شكل).

(٣) شرح الأنبارى، ٣١٤/١.

وقيل: المراد باليعسوب هنا الطائر المعروف يقع على الأسنة، لأنه لا يجد أرفع منها، والأول أظهر وهو الأليق بالسياق.

وبعد أن وصف قناها بالاستواء ، ووصف أسنتها بالاستواء وشدة الصفاء ، أخذ في وصف طولها وقد حملتها أكف قومه إذ لحقوا أعداءهم وصوبوها نحوهم وذلك عن طريق تشبيهها بالحبال في الطول واللين والاستواء فقال:

كأَنَّها بأَكُفِّ القومِ إِذْ لَحِقُوا مَوَاتِحُ البِئْرِ أَو أَشْطَانُ مَطْلُوبِ

يقول: هذه الرماح – التى قدمت وصفها – كأنها في طولها حبال البئر ، أو حبال البَكْرة بمطلوب وهو ماء معروف، يقال أنها بئر بين مكة والشام، يكثر طالبوه من الناس ، ولهذا أطلقوا عليه مطلوب، أى: ماء يطلب[1].

وتشبيه طول الرماح بحبال البئر،لا يقصد منه وصفها بالطول فقط بل وصفها بالطول والاستواء واللين واكتناز الجوف وإصابة الهدف وعدم الزيغ، وهنا تصير أسنة الرماح بمثابة الدلاء المربوطة بالحبال قاصدة هدفها من إصابة الماء والاغتراف منه، أما أسنة الرماح فإنها ترتوى بدماء الأعداء حين تلحقهم فتطعنهم وتتخلل أحشاءهم. فهو من التشبيه المركب الطرفين والوجه؛ لأن مقصوده تشبيه هيئة الرماح بأكف القوم وانطلاقها وإصابتها العدو بهيئة حبال البئر أو حبال البكرة حين تنطلق قاصدة قعر البئر واغتراف الماء منه.

وبذا تكون الصورة التشبيهية هنا جامعة لمشهد وصف الشاعر لرماح قومه التى كفت وزجرت معدا عنهم ونالت منهم ومن دمائهم طعنا وقتلا. حتى

---

(١) ينظر: شرح الأنبارى، ٣١٤/١.

أصابت القاصى منهم والدانى، وقد أكد ذلك وقرره حين أردف هـذا البيـت بقوله:

كِلاَ الفَرِيقَينِ أَعلاهم وَأَسفَلُهُمْ يَشْقَى بأَرْماحِنا غيرَ التَّكاذِيبِ

والمعنى: أن كلا فريقى معد من كان منهم معاليا بأرض نجد، ومن كـان منهم متسافلا يغص ويشقى بأرماحنا غير كذب، أى قولا حقا غير تكذيب[1].

والتعبير بصيغة المضارع عن الماضى في قوله (يشقى بأرماحنا) يقصد منه استحضار هذه الصورة العجيبة المتجددة التى تبرز الرماح وقد نالـت القاصـى منهم والدانى وارتوت من دمائهم.

والتعبير بصيغة جمع القلة (أرماح) لا ينسجم مع السياق والمعنى المـراد وهو عموم شقاء كلا الفريقين الذى يقتضى غمرهم بالرماح الكـثيرة، ولعـل حرص الشاعر على استقامة الوزن هو ما دفعه إلى التعبير بهذه الصـيغة ولهـذا حرص على تأكيد صدق قوله وأنه قولا حقا غير تكذيب.

وعبر بـ(أو) في قوله (أو أشطان مطلوب) لإفادة التنوع، لأن المقصـود بقوله (مواتح البئر) حبال أى بئر، فخص من ذلك نوعا معروفا يقصده النـاس ويعرفونه، وغرضه من ذلك توضيح صورة المشبه، وبيان مقدار حاله لتستقر في الأذهان وتبدو لكل ذى عينين واضحة جلية.

وممن وصف طول الرماح القطامى حيث يقول [2]:(من الوافر)

قَوَارِشُ بالرِّماحِ كأَنَّ فيها شَوَاطِنَ يُنْتَزَعْنَ بها انْتِزَاعَا

وفيه يصف تداخل الرماح في الحرب وتشاجرها ووقع بعضها على بعض

---

(١) شرح الأنبارى، ١/٣١٤-٣١٥.

(٢) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقى، ١/١٢٥٨.

حتى يسمع لها صوتا، وهنا تبدو الرماح وكأن فيها حبالا طوالا ينتزعن بها اتتزاعا.

وهي صورة بلاغية رائعة تجسد مشهد تقارش الرماح وتداخلها في الحرب، وتصف طولها وامتدادها وسط المعركة وكأن فيها شواطن (جمع شطن) الحبال الطويلة شديدة الفتل يستقى بها وتشد بها الخيل[١].وهذا أبلغ في تصوير طول الرماح وتداخلها عند اشتداد الحرب حتى يسمع لها صوتا وتشاجرا، وقد اكتفى شاعرنا بتصويرها في أكف قومه إذا لحقوا أعداءهم، وعذره أنه يصف مشهد زجر وردع ومتابعة لأعالى معد وأسفلهم.

وهذا ما جعل الأصمعى يصف قول القطامى بأنه :"أحسن ما قالت العرب في طول الرماح"[٢].

---

(١) ينظر: لسان العرب، ٢٣٧/١٣، مادة شطن.

(٢) ينظر: ديوان المفضليات بشرح الأنبارى، ٣١٤/١.

المطلب الرابع

تشبيه سنان الرمح عند عميرة بن جُعل[١]

وفي مقام الهجاء والتوعد، يقول عميرة بن جُعَل: (من الطويل)

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي إِياساً وجَنْدَلاً   أَخَا طارِقٍ، والقَوْلُ ذُو نَفَيَـــانِ

فَلاَ تُوَعِدَانِي بالسِّـلاَحِ فَإِنَّما   جَمَعْتُ سِلاَحي رَهْبَةَ الحَدَثانِ

جَمَعْتُ رُدَيْنيًّا كـــأَنَّ سِنانَهُ   سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَسْتَعِنْ بِدُخَـــانِ

السياق والجو العام للقصيدة:

هذه الأبيات من قصيدة لعميرة بن جُعَل يبلغ عدد أبياهّا اثنى عشر بيتا، تندرج تحت غرض الهجاء والتوعد، وقد أراد أن يهجو بها رجلين (إياسا وجندلا) وأن يتوعدهما بالسلاح.

فبدأ بالحديث عن أطلال الحى، كيف مضت عليهـا السـنون فعفـت آثارها، ولم يبق غير النوى والأوارى الدارسات ومواضع الحطب، وكيف أنهـا أمست قفرا مترلا للسباع يتعاركن ويتهارشن، ثم دفع إلى غرضه مـن الهجـاء والتوعد ونعت سلاحه، ووصف السنان وصفا عبقريا، ثم عيرهما بـأن قومهمـا

---

(١) هو عَميرة بن جُعَل بن عمرو بن مالك، ينتهى نسبه إلى ربيعة بن نزار، شاعر جـاهلى، روى له صاحب "المفضليات" القصيدتين: ٦٣، ٦٤، وقد ظنه ابن قتيبة أخـا لكعـب بـن جعيل الشاعر الإسلامى وتابعه في ذلك كثير ممن أخذ عنه.(تنظر ترجمته في: المؤتلـف والمختلف للآمدى ، ص٨٣-٨٤، والشعر والشـعراء، ص٦٣١-٦٣٢، والأبيـات فـي المفضلية: ٦٤، ص٢٥٩).

كانوا عبيد قومه في شدة الزمان، وأن جديهما عبدان وأميهما أمتان[١].

الدراسة والتحليل:

تبدأ الأبيات التى بين أيدينا بقوله :

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي إِياساً وجَنْدَلاً أَخَا طارِقٍ، والقَوْلُ ذُو نَفَيانِ

وفيه ينتقل من حديثه عن الأطلال التى صدر بها قصيدته إلى الغرض المقصود وهو الهجاء والتوعد، وذلك بواسطة فاء الربط الداخلة على أسلوب الاستفهام بـ(من) في قوله (فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي إِياساً وجَنْدَلاً) والذى ينبئ عن غضب شديد مما بلغه عنهما من توعدهما له بالسلاح والفتك، ومن ثم بدأ توعده وهجاءه لهما بأن أخذ يطلب من يحمل رسالة التهديد والوعيد منه إليهما، وهي رسالة تفوح تهكما وتحقيرا. وقد عبرت جملة الاستفهام عن كل هذه المعانى.

قوله:(والقول ذو نفيان) تعبير عن تفرق القول ههنا وههنا، مأخوذ من: نفت الريح التراب نفيا ونفيانا أى : أطارته وفرقته، أو من : نفيان السحاب، وهو ما نفته السحابة من مائها فأسالته[٢]. وذلك على تشبيه القول بالتراب الذى أطارته الرياح وفرقته، أو الماء الذى نفته السحابة فأسالته على سبيل الاستعارة بالكناية، والمقصود من ذلك إبراز مدى سريان القول وتفرقه ههنا وههنا بواسطة الرواة الذين يحملونه ويتناقلونه في حلهم وترحالهم، وهذا يتناغى وينسجم مع مقصود جملة الاستفهام في صدر البيت، فيكون في البيت ما يسمى (تشابه الأطراف) وهو من صور مراعاة النظير أو التناسب. وهو أن يختم الكلام بما

---

(١) ينظر: المفضليات، ص٢٥٨.

(٢) لسان العرب، ٣٣٧/١٥، مادة (نفى).

يناسب أوله في المعنى [١]. وبذا تتماسك أجزاء الكلام وتنسجم معانيه وتتلاقى في تجلية المعنى المقصود وتقريره، وتلك هى القيمة البلاغية لهذا الأسلوب، الذى يبرز إحساس الشاعر بمعانيه ووعيه بأدواته البيانية المعبرة والمتناغية .

ويستمر الشاعر في تهديدهما وتحقيرهما فيقول:

فَلاَ تُوَعِدَانِي بالسِّلاَحِ فَإِنَّما جَمَعْتُ سِلاَحي رَهْبَةَ الحَدَثانِ

والنهى في قوله (فلا تواعدانى) مرتب بالفاء على الكلام السابق والمقصود منه: تحقيرهما وتهديدهما والتقليل من شأن وعيدهما له. والمعنى: لا تهددانى ولا توعدانى بسلاحكما فإن معى ما يفله مما جمعت من سلاحى رهبة الحدثان.

فقوله :(فَإِنَّما جَمَعْتُ سِلاَحي رَهْبَةَ الحَدَثانِ) بيان لعلة النهى في الجملة السابقة، وشروع فى التهديد صراحة، وقد تم له ذلك بواسطة فاء الربط والتعليل.

وقد أفاد التعبير بـ(إنما) هنا قصر جمعه سلاحه على رهبة الحدثان، وخوف حوادث الدهر، قصر صفة على موصوف، والمعنى: ما جمعت سلاحى إلا رهبة الحدثان.

والمقصود من التعبير بأسلوب القصر هنا تأكيد شدة استعداده للنوازل والحوادث، وتقرير قوة عدته وعتاده التى تجعله على أهبة الاستعداد لمواجهة المخاوف والمفازع.

ومن المعلوم أن موضوع (إنما) على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة[٢].

---

(١) ينظر: الإيضاح مع البغية، ص٥٨٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانى/ تحقيق. محمود شاكر، ص٣٣٠، مطبعة

والمخاطبان في البيت لا يسلمان للشاعر فيما قال ولا يقران له به، ولكن الشاعر نزلهما منزلة من لا يجهل الخبر ولا يدفع صحته، وادعى أن جمعه سلاحه رهبة الحدثان أمر ظاهر معلوم للجميع ولا يتسنى لأحد أن يدفع صحة ذلك، وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا أو افتخروا أن يدعوا ثبوت ما يقولون ويصفون ويقرروا أنه المعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد.

وكأنه يريد أن يقول لهما : إن استنكاركما لقوتى وما جمعت من سلاحى خوف الحوادث لا يجدى؛ لأن ما قلته هو المعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد، فليس أمامكما إلا أن تقرا لى بذلك وتتخليا عن وعيد السلاح، وهذا هو سر التعبير بـ(إنما) في هذا السياق، الذى تبدو فيه رغبة الشاعر الحثيثة في تأكيد أنه مستعد دائما لأعدائه، جامع لسلاحه خشية الحوادث والنوازل.

وقد فصل ما أجمله في البيت السابق حيث قال:

جَمَعْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَسْتَعِنْ بِدُخَانِ

والرديني: الرمح، منسوب إلى امرأة تسمى ردينة كانت وزوجها يقوِّمان القنا[1]، وخصّ الرمح بالذكر دون باقى السلاح لبيان عظم منزلته وعلو شأنه من بين جميع أنواع الأسلحة وبخاصة في أوقات الفزع والخوف من النوازل وحوادث الدهر، حيث يكفى صاحبه شر أعدائه .

وتنكيره يقصد منه التفخيم والتهويل في مقام الوعيد والتهديد، والمعنى: جمعت رمحا قويا صلبا فاتكا ترهبه الفرسان.

وقد أكد هذا المعنى وقرره بتلك الصورة التشبيهية الرائعة وهذا الوصف

المدنى.

(١) ينظر: المفضليات، ص٢٥٩.

العبقرى لسنانه :

..... كأَنَّ سِنانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَسْتَعِنْ بِدُخَانِ

حتى قال الأصمعى:"هذا أشعر بيت في وصف السنان"[1].

فقد شبه السنان في صفائه ولمعانه بصفاء لسان النار ولمعانه وهو من التشبيه الحسى الطرفين والوجه.

والغرض من التشبيه : بيان مقدار حال المشبه في وصفه بالصفاء واللمعان.

ولعل ما دفع الأصمعى إلى وصف هذا البيت بأنه أشعر بيت في وصف السنان هو ما عمد إليه الشاعر من التفصيل الدقيق حين وصف المشبه به بقوله (لم يستعن بدخان) ؛ لأنه إذا لم يستعن بدخان كان أصفى له، وبذا ينسجم صفاؤه ويتطابق مع صفاء المشبه، وتلك أهم صور التفصيل في الكلام، وذلك بأن يفصل المتكلم فيأخذ بعضا من الأوصاف ويدع بعضا، بمعنى أن يكون معه وصفان أو أوصاف، فيفضل بعضها عن بعض ويعتبر ما له دخل في تحقيق وجه الشبه، وينفى ما لا دخل فيه، وهذا ما فعله الشاعر حيث نظر في شعلة النار فوجد لها شكلا ولونا ولمعاناً واضطرابا، وكل ذلك يحقق المشابهة بين الطرفين، غير أنه وجد في رأس الشعلة دخانا، وليس هنالك ما يقابله في المشبه (رأس السنان)، فنفى استعانة شعلة النار بالدخان حتى يؤدى التشبيه كما هو على التحقيق.

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من اجتماع الشكل المخصوص مع الإشراق

---

(١) المفضليات، ص٢٥٩.

واللمعان والاضطراب .

ومثله قول امرئ القيس:

جَمَعْتُ رُدَيْنِيّاً كأنَّ سِنَانَه سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصلْ بدُخَانِ

فبهذا التفصيل اللطيف حسن التشبيه فيهما وحظى بالأفضلية على تشبيه عنترة حين قال:

يُتابِعُ لاَ يَبْتَغِي غَيرَه بأبيضَ كالقَبَس المُلْتَهِبْ

فالمشبه به واحد عند الشعراء الثلاثة وهو (شعلة النار) ولكن الأول والثانى فصلا ونفيا اتصال شعلة النار بالدخان، أما الثالث فلم يفصل ومر على حكم الجمل؛ أى: أجمل صفات المشبه به ولم ينف منها ما لا يتناسب مع المشبه وهو السيف، ومن ثم حصل التفاوت في الفضل بينه وبين الأولين[1].

ويلحظ المتأمل اتفاق العبارة في الأول والثانى مع اختلاف بسيط في الفعل المنفى، حيث قال عميرة: (لم يستعن بدخان) وقال امرؤ القيس:(لم يتصل بدخان).

والاستعانة: طلب العون وهو الظهير على الأمر[2]

والاتصال: يعنى الجمع والالتئام، من اتصل الشيءُ بالشيء : التأم وصار موصولا به.

فالأول ينفى طلب شعلة النار العون أو الظهير من الدخان لتتحقق هيئته المقصودة، أما الثانى فإنه ينفى الاتصال أى الجمع والالتئام بينهما في إبراز الهيئة

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، ص١٦٦ وما بعدها (بتصرف في العبارة)، وينظر: بغية الإيضاح، ص٤٣٨-٤٣٩.

(٢) لسان العرب، ٢٩٨/١٣، مادة (عون).

المقصودة والوجه المطلوب، فكلاهما ناظر إلى استقلالية شعلة النار وانفصالها عن الدخان في إفادتها الشبه كما هو على التحقيق.

المهم أن امرأ القيس هو السابق الذى له فضل السبق في تصوير المعنى، والثانى ناقل للبيت بلفظه ومعناه، وليس له أى عمل سوى استبدال لفظ (لم يتصل) بلفظ (لم يستعن).

أما عبارة عنترة فإنها قد اختلفت عن عبارة سابقيه وبدت قاصرة عن تأدية التشبيه كما هو على التحقيق، حيث لم ينف من المشبه به (القبس الملتهب) وهو شعلة النار، ما لا يتناسب مع المشبه (أبيض) وهو السيف.

وهكذا تتفاوت صور الأدباء وعبارات الشعراء عن المعنى الواحد، فيبدو بعضها قويا معبرا عن المعنى المقصود، ويبدو البعض الآخر قاصرا عن تأدية المعنى المراد.

المطلب الخامس

تشبيه سنان الرمح عند ربيعة بن مقرون الضَّبيِّ[١]

وفي مقام الفخر بنفسه وبقومه يقول ربيعة بن مقـــروم الضَّـــبِّي: (مـــن الطويل)

وأَسْمَرَ خَطِّيٍّ كأَنَّ سِنانَهُ شِهابُ غَضاً شَيَّعْتَهُ فَتَلَهَّبَا[٢]

السياق والجو العام للقصيدة:

صدّر الشاعر قصيدته بتذكاره لهواه أيام الصبا، وأسى لتباعد ما بينه وبين خليلته: بُعد الدار وبُعد العهد، فقد أضحى شيخا يطيع أمر العاذلات، ولكنه لا يزال مع ذلك جلدا يقاوم الخصم، وينصر المولى، وهو في ذلك يقرى الضـــيف ويرد الأعداء، ثم يصف فرسه ورمحه، ويفخر بأنه يسقى الفتيان الخمر ويطعمهم الشواء، وبأنه يحمى الإبل ويربأ لجيشه، ويقود الخيل تصبح العـــدو، ويصـــف سرعتها وعظم أثر فرسانها[٣].

الدراسة والتحليل:

ويلحظ المتأمل لمعانى القصيدة وأجزائها أنها تصب في غرض واحد وهـــو

---

(١) أحد شعرء مضر المعدودين في الجاهلية والإسلام، أسلم فحسن إسلامه، وشهد القادســية وغيرها من الفتوح.(ينظر: الشعر والشعراء، ص١٩٨، دار الكتب العلميـــة، ط.الثانيـــة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م).

(٢) ينظر: المفضلية رقم ١١٣، البيت رقم (١٠).

(٣) ينظر : المفضليات، ص٣٧٥.

(الفخر) بنفسه وبقومه وأنه قد قالها في الجاهلية قبل أن يسلم، وذلك لأن فيها من المعانى ما لا يتناسب وتعاليم الإسلام، كفخره بأنه يسقى الفتيان الخمر، حتى وإن قال على سبيل التذكار.

والبيت الذى بين أيدينا يمثل البيت العاشر في القصيدة، وفيه يصف الرمح بوصفين، ويشبه سنانه بالنار في رأس العود:

وَأَسْمَرَ خَطِّيٍّ كَأَنَّ سِنانَهُ شِهابُ غَضاً شَيَّعْتَهُ فَتَلَهَّبَا

قوله (وأسمر) يقصد منه الرمح، وهو معطوف على كلام سابق يصف فيه فرسه، والـ(خَطى) منسوب إلى الخط وهو موضع بالبحرين.

وخص الأسمر بالذكر؛ لأنه قد بلغ في أجمته، فذلك أصلب له، وألين. وإذا لم يبغ كان كزاً يتقصف[1]. والمعنى: ورمح أسمر قد بلغ في أجمته حتى صار صلبا لينا، وقد نسبه إلى الخط، ليكشف عن عراقة موطنه في صناعة الرماح.

وبعد أن وصف الرمح بالصلابة واللين، وحسن الصنعة، نظر إلى سنانه فوصفه وصوره بهذه الصورة البديعة: (كَأَنَّ سِنانَهُ شِهابُ غَضاً شَيَّعْتَهُ فَتَلَهَّبَا) و(الشهاب) النار في رأس العود، و (الغضا) شجر كثير النار، حسن التوقد، و (شيعته) ألهبته، أو أعنته بحطب[2].

شبه سنان هذا الرمح الأسمر الخطى بالنار في رأس العود من شجر الغضا.

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من اجتماع الشكل المخصوص مع الإشراق واللمعان والاضطراب.

وهذه الصورة رغم ما فيها من تتبع لأوصاف المشبه به ودقائقه، ومن

---

(١) ينظر: ديوان المفضليات بشرح الأنبارى، ٢٨٩/٢.

(٢) السابق نفسه.

استمرار تجدد اشتعال هذا الشهاب بتجدد إضرامه وإعانته بالحطب، فإنها قد بدت قاصرة عن تأدية التشبيه كما هو على التحقيق حيث لم ينف من المشبه به (شهاب غضا) وهو النار المشتعلة برأس هذا العود ما لا يتناسب مع المشبه وهو سنان الرمح.

وبذا تخلو الصورة من التفصيل المؤدى إلى التفاوت في الفضل كما خلت الصورة عند عنترة، حتى بدت الصورتان قاصرتين عن تأدية المعنى المقصود.

وإضافة الشهاب للغضا لإفادة كثرة اشتعال النار وشدة توقدها بسبب استمدادها بهذا النوع من الشجر الكثير النار، الحسن التوقد.

وقوله (شيعته فتلهبا) أى : ألهبته وأضرمته فازداد اشتعالا وتوقدا، والمقصود منه: تأكيد وصف الشهاب بكثرة ناره وقوة اشتعاله.

المطلب السادس

تشبيه سنان الرمح عند أبى ذؤيب الهُذلى[١]

وفي مقام الرثاء يقول أبو ذؤيب الهذلى: (من الكامل)

وكِلاَهُما في كَفِّهِ يَزَنِيَّةٌ فيها سِنانٌ كالمنارَةِ أَصْلَعُ[٢]

السياق والجو العام للقصيدة:

هلك بنوه الخمسة في عام واحد، أصابهم الطاعون، وكانوا رجالا ولهم بأس ونجدة، وكانوا هاجروا إلى مصر، فبكاهم جميعا بهذه القصيدة الرائعة، وقد جعل صدرها حديثا بينه وبين امرأة تسائله عن شحوبه وأرقه، فيروى لها حزنه وألمه لهذه النكبة، ومما يسترعى النظر في هذه القصيدة تكراره قوله (والدهر لا يبقى على حدثانه) في ثلاثة مواضع، حيث جعله المطلع لكل موضع منها، ففي الموضع الأول : يتحدث عن هلك حمار الوحش وينعته نعتا عجيبا، ثم هو في الثانى: يفيض القول في هلك الثور، وينعته وينعت الصائد والكلاب، وفي الموضع الثالث: يتحدث عن مصرع البطل الفارس الكامل السلاح، وينعت هذا البطل وموقفه إزاء بطل آخر، يصطرعان ويتشاجران بالسلاح، فإذا به قد خرّ صريعا

---

(١) "أبو ذؤيب": كنيته اشتهر بها، واسمه خويلد بن خالد بن محرث، ينتمى إلى قبيلة "هذيل" ، وهو أحد المخضرمين ممن أدرك الجاهلية والإسلام فحسن إسلامه، وقد وضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدى ولبيد والشماخ، وقال عنه: كان شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن.(ينظر: طيقات فحول الشعراء، ص٤٧، والشعر والشعراء، ص٤٣٥).

(٢) ينظر: المفضلية رقم ١٢٦، البيت رقم (٦٢).

قتيلا.

وأبو ذؤيب يتخذ من هذه الألفاظ الثلاثة عزاء لنفسه، وتسلية لها، وحضا على الصبر، فهذه الضروب الثلاثة من مظاهر القوى الحيوية، التى تتمثل في الحمار والثور، والبطل، لا تجدى أمام الموت، فهو أقوى وأقدر[١].

الدراسة والتحليل:

يأتى هذا البيت في سياق حديثه عن اصطراع البطلين وتصارعهما حتى يخر أحدهما، وفيه يصور كلا الفارسين وقد أمسك في كفه قناة يزنية يبدو سنانها كالمنارة، يقول:

وكِلاَهُما في كَفِّهِ يَزَنِيَّةٌ فيها سِنانٌ كالمنارَةِ أَصْلَعُ

يزنية: قناة، نسبها إلى ذى يزن، يقال رمح يزنى، وقناة يزنية، والقناة: هي الرمح الأجوف. والمنارة: المصباح نفسه، وقيل هي المَسْرجة، وقال ابن الأعرابى: أراد بالمنارة منارة النار التى ينور بها بالليل[٢].

وقوله: (أصلع) يريد أنه يبرق لا صدأ فيه، يقال: انصلعت الشمس إذا بدا ضوءها، ومنه الصلع في الرجال : انكشاف الشعر عن بياض البشرة.

والمعنى: أن كلا الفارسين يحمل في كفه قناة (يزنية).

ففي التعبير موصوف محذوف حيث اكتفى عنه بوصفه ونسبته إليه لاشتهارها به، وتنكير (يزنية) لإفادة التفخيم والتعظيم.

وقوله :(فيها سنان) أى ثبت في أعلاها نصل أو سنان ناصع لامع لا صدأ

---

(١) ينظر: المفضليات: ص٤٢٨.

(٢) ينظر: شرح الأنبارى على المفضليات، ٤٥١/٢.

فيه حتى بدا يشبه المصباح المنير في لمعانه ونصاعة ضوئه.

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الشكل المخصوص مع الصفاء واللمعان.

والغرض من التشبيه هنا : هو بيان مقدار حال المشبه في صفائه ولمعانـــه، مما ينبئ عن دقة حده ومضائه.

والتعبير بـــ(في) الظرفية في قوله (فيها سنان) يومئ إلى قوة تثبيت السنان وغرسه في القناة، وهذا ينم عن صلابة وتماسك أجزاء الرمح.

ووصف السنان بقوله (أصلع) لتأكيد نصاعته وبروقه وخلوه من الصدأ، حتى بدا مضيئا لامعا لا يعلوه غبار أو صدأ.

واصطفاء التعبير بالمشبه به (المنارة) لبيان درجة نصاعة الرمح ولمعانـــه، والإشارة إلى أنه يتقدم صاحبه فيلهمه صواب التسديد، ويضيء له طريق النصر على عدوه، بما فيه من صفاء وحدة ومضاء.

تعقيب:

- استوعبت تشبيهات الشعراء جميع أجزاء الرمح ، وكان أكثرها تشبيهاً السنان، فقد تعددت تشبيهاته بتعدد الشعراء (خمسة تشبيهات عند خمسة شعراء) حيث شبه بمنقار النسر، وبالهلال ، وبسنا اللهب، وبشهاب النار الملتهب، وبالمنارة وذلك لأهميته؛ إذ هو يقع في مقدمة الرمح وأعلاه، وبه يقع الطعن وتتحقق غاية الطاعن.

كما تفاوتت هذه التشبيهات قوة وضعفا ووضوحا وخفاء بين الشعراء، وهذا يؤكد تنوع التعبير عن المعنى الواحد عند الشعراء، بل الحقيقة أن كل أديب ومبدع يستطيع أن يعبر عن المعنى الواحد بعدة طرق في وضوح الدلالة عليه ، وتلك غاية علم البيان عند البلاغيين.

وقد وقع التنوع والتفاوت هنا في أسلوب بياني واحد، سلكه وترسم خطاه جميع الشعراء، وهو أسلوب التشبيه.

وقد تناسلت هذه التشبيهات من رحم السياقات المتنوعة في القصائد وارتبطت بالحالة النفسية والموقف الشعرى عند كل شاعر، فكانت تعبيرا صادقا عن ذات الشاعر، وبيانا كاشفا لمقاصده وأغراضه، ومصورا لمعانيه وشعوره، حين نظمها بأسلوب بديع كشف عن وعيه بأدواته البيانية المعبرة، وألفاظه وتراكيبه وأساليبه المتناغية والمصورة.

- يستطيع المتفرّس في أساليب التشبيه السابقة أن يدرك شدة ارتباط الشاعر العربى بآلات الحرب، وافتخاره بها، وتفرّسه لدقائق صناعتها وحسن تركيبها وإصلاحها، وحرصه على كشف حقيقتها، وبيان مقدار

حالها عن طريق أسلوب التشبيه ، وذلك حتى يبرز مظاهر قوتـــه وقـــوة قبيلته التى يرتبط بها أشد الارتباط ، فيرهبهم الأعداء ويخشونهم، وهـــذا يعكس حياة الحروب التى كانت تسود المجتمع العربى في هذا الوقت.

الخاتمـــــــة

وفي نهاية هذه الجولة الكاشفة عن الأغراض والمقاصـــد في (تشـــبيهات الرمح في المفضليات)، والتى تناولت هذه التشبيهات بالدراسة والتحليل والنقد يمكن لنا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

١-ارتبط معظم هذه التشبيهات بسنان الرمح في أغراض متنوعة أبرزها الفخر، والهجاء.

٢-شيوع التركيب وكثرة دورانه في الأساليب الفصيحة يكسبانه قوة وقبـــولا حتى وإن خالف قول العلماء فيه.

٣-حسن التشبيه لا يتوقف على مجرد تحقيق الشبه بين الطرفين، بل يتطلب أمورا كثيرة منها (اصطفاء الكلمات التى تنسجم مع الموقف والســـياق وتـــدعم المغزى والمقصد من التشبيه المتمثل في وجود علاقة صـــحيحة وقويـــة بـــين الطرفين).

٤-الاستعارة "غير المفيدة" حين تهدف إلى معنى وتؤدى غرضا بلاغيًـــا تصـــبح مفيدة.

٥-ارتبطت الصورة التشبيهية ارتباطا وثيقا بالحالة النفسية والوجدانية للشاعر في كل موقف وتدرجت مع النفس في خوالجهـــا ونوازعهـــا خـــلال الموقـــف الشعورى.

٦-استمدت الصوة التشبيهية عناصرها من البيئة المحيطة والمجتمع الذى يتحـــرك الشاعر في ربوعه.

٧-تفاوتت صور الأدباء وعبارات الشعراء عن المعنى الواحد، وذلك لأن المعانى من شأنها أن تختلف عليها الصور.

٨-تآزرت أساليب: اللف والنشر، ومراعاة الـــنظير، والاســـتعارة والكنايـــة، والقصر ...، مع الصور التشبيهية للرمح وأجزائه في تجلية المعنى المقصـــود، وإبرازه في صورة جلية ناصعة.

والله ولى التوفيق

أهم المصادر والمراجع

١. أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجانى، تحقيق الشيخ : محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى.

٢. الإيضاح، للخطيب القزويني، مكتبة الآداب.

٣. بغية الإيضاح، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

٤. البيان في ضوء أساليب القرآن، د.عبد الفتاح لاشين، ط.دار الفكر العربى، ١٩٩٨م.

٥. البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط.الحلبى.

٦. تاريخ دمشق: لابن عساكر (ت٥٧١هـ) ، تحقيق: محيى الدين العمرى، ط.دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٧. التحبير، للدكتور/ محمود توفيق سعد، مكتبة العمروسى.

٨. التصوير البيانى، د.محمد أبو موسى، ط.مكتبة وهبة.

٩. دائرة المعارف الحديثة، وضع : أحمد عطية الله، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.الثانية ١٩٧٩م.

١٠. دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانى، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدنى.

١١. دلالات التراكيب، د . محمد أبو موسى، ط.مكتبة وهبه.

١٢. ديوان ابن المعتز، تحقيق : كرم البستانى، ط.دار صادر.

١٣. ديوان أبى تمام بشرح التبريزي، ط.دار المعارف، الطبعة الرابعة.

١٤. ديوان سلامة بن جندل، تحقيق د.فخر الدين قباوة، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٥. ديوان العجاج، تحقيق : سعد قناوى، ط.الأولى، دار صادر، ١٩٩٧م.

١٦. ديوان المفضليات، شرح الأنبارى، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ط.دار صادر ، بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١٧. شروح التلخيص، ط.دار السرور

١٨. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ط.دار الكتب العلمية، ط.الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١٩. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحى، ط.دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠. العمدة، لابن رشيق القيروانى، ط.دار الطلائع.

٢١. عيار الشعر، لابن طباطبا العلوى، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م).

٢٢. اللزوميات، لأبى العلاء المعرى، ط.دار صادر، بيروت.

٢٣. لسان العرب، لابن منظور، ط.دار صادر، بيروت.

٢٤. مذكرة في البلاغة، للشيخ سليمان نوار،

٢٥. المطول، لسعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠هـ.

٢٦. معجم ألفاظ القرآن ، ط.مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢٧. مغنى اللبيب، لابن هشام، ط.مكتبة صبيح، القاهرة.

٢٨. المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى، ط.دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.

٢٩. المفضليات، للمفضل الضبى، تحقيق: أحمد محمد شاكر ـ عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثامنة، دار المعارف.